الطبعة الثانية

# ذكريات مترجم سوفيتى على الجبهة المصرية

6 OCTOBER 1973

٦ أكتوبر ١٩٧٣

WWW.OCTOBERWAR.INFO

أستاذ دكتور

جينادى جورياتشكين

الناشر

RUSSIA NEWS

أنباء روسيا

ا.د. جينادى جورياتشكين • ذكريات مترجم سوفيتى على الجبهة المصرية •



الطبعة الثانية

# ذكريات مترجم سوفيتى على الجبهة المصرية

6 OCTOBER 1973

٦ أكتوبر ١٩٧٣

WWW.OCTOBERWAR.INFO


أستاذ دكتور

جينادى جورياتشكين



الناشر

RUSSIA NEWS

أنباء روسيا

الناشر
RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي
h.elshafie57@mail.ru
المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24 77 38 70 & 71
E-mail: secertary_ert@yahoo.com

شارك في الإعداد
شيماء محمد الشافعى

التصحيح والمراجعة
حامد أحمد محمد

الإخراج الفني
مي مجدي

تحرير
نور الهدى الحسن عبد الكريم

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2008
توزيع منشاة المعارف بالإسكندرية
الطبعة الثانية 2014
دار نشر أنباء روسيا


رقم الإيداع

بالتعاون مع
الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم

При содействии
египетско – российской
ассоциации по культуре и науке




ذكريات مترجم سوفيتى على الجبهة المصرية ، كتاب صدر في طبعته الأولى منذ عدة سنوات و تعيد دار نشر انباء روسيا بالتعاون مع الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم نشره إحتفاءً بالذكرى 40 لنصر اكتوبر 1973 ، وهو النصر الذي إختلطت فيه جهود و دماء الجنود المصريين و السوفيت على السواء .

الذكريات سجلها استاذ التاريخ العربي بجامعة موسكو جينادي جورياتشكين الذى عمل مترجماً بالجبهة المصرية خلال الفترة من 1969 و حتى 1971 ، و هى الفترة التي شهدت إعادة بناء القوات المسلحة و حرب الاستنزاف المجيدة .

سجل جورياتشكين - و الذى لم يتعد عمره آنذاك خمساً و عشرين عاماً - أحداث فترة عمله مترجماً - ضمن ما يزيد عن الخمسمائة مترجم سوفيتي عملوا معه آنذاك - فيصف لنا كيف عاش السوفيت في ظروف صعبة - مثلهم مثل أقرانهم المصريين - و يسرد قصصاً إنسانية عديدة تكشف - ضمن ما تكشف - عن روح و إرادة مشتركة لصنع النصر الذى كان .

الناشر

رئيس الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم
رئيس مجلس إدارة و رئيس تحرير أنباء روسيا
يناير 2014

# مقدمة

لم يكن تناول هذا الموضوع من قبيل الصدفة ، رغم مرور 40 سنة تقريباً على تلك الأحداث التى أذكرها فى كتابى . فرغم تقادم الزمن ، إلا أن ( حرب الاستنزاف ) فى نهاية الستينات ومطلع السبعينات من القرن الماضى والتى شاركت فيها بنفسى ، تعود إلى ذاكرتى من جديد وجديد .

ولعل السبب فى ذلك يعزى إلى سُنة الحياة نفسها ، فعندما يجد الإنسان نفسه دالفاً العقد السابع من عمره ، فهو يبدأ فى مراجعة هذا الشوط من العمر وما حققه خلاله من نتائج . والمفارقة هنا هى أنه أول ما يتبادر إلى الذهن بالدرجة الأولى هى تلك المراحل الصعبة من الحياة .

وقد كانت إقامتى فى مصر كمترجم عسكرى خلال السنوات ما بين عامى (1969 , 1971 ) مرحلة خاصة من مشوار حياتى، يمكن تمييزها فى اضطرارى للاصطدام لأول مرة بالموت والدم والرعب ، واستطعت أن أدرك ذاتى وأفهم الناس المحيطين بى بشكل أفضل ، متقبلاً كل ما يدور حولى فقط بلونيه الأبيض والأسود دون أى تزيين أو إضفاء أى ألوان أخرى عليه . وللحق ، لم تكن هناك أى ألوان أخرى !

حين أسترجع هذه السنوات وهذه الأيام ، أرى نفسى بالحركة البطيئة ، وكأنى فى حلم . وبالطبع ، لم تعد أحداث تلك السنوات تأتينى ... فى منامى وأحلامى ، مثلما كان يحدث ذلك من قبل وآنذاك . لكن بمراجعة الذات أجدنى أمام استنتاج بأن هذه الأحداث حفرت بعمق ، ليس فى ذاكرتى فقط ، بل وفى طبعى ونمط تصرفاتى أيضاً. ولم يعد بالمقدور التخلص منها بعد أن أصبحت جزءاً من الذات .

ولقد أشرت فى ( ذكرياتى ) إلى رغبتى فى عدم تغيير أى شئ مما مررت به فى هذه المرحلة من حياتى ، حتى ولو أتيحت لى مثل هذه الإمكانية .

كانت فترة الخدمة كمترجم عسكرى فى مصر أثناء (حرب الاستنزاف ) عنصراً ضرورياً لتكوين شخصيتى كرجل وإنسان وأيضاً كخبير ومؤرخ مستعرب ، مثلماهو وضعى الآن على مدى 45 عاماً . ويقينى حتى الآن هو أن عملى كمترجم فى ظروف الحرب والقتال كان بمثابة ( جامعتى ) الثانية ، أما من كان حولى من جنرالات وضباط وجنود مصريين ، فهم أصبحوا أساتذتى الذين نهلت من معارفهم ما ملأ الفراغ فى تعليمى المهنى، وأصبحت مصر ـ بهم ـ بالنسبة لى وطنى الثانى حتى الآن .

ويحلو لى أن أكرر هذا القول لتلاميذى المستعربين ولابنتى المستعربة أيضاً . فعندما عملت مديراً للمركز الثقافى الروسى فى الإسكندرية ، كنت أشعر طوال الوقت بأن الأرض صلبة تحت قدماى ، مستعيداً فى ذات الوقت ذلك الإحساس بعدم صلابة

رمال الهايكستب تحت حذائى العسكرى السميك ، ومدركاً لتلك العلاقة الخفية بين الأزمنة آنذاك والآن و انخراطى فى الواقع المصرى والحضارة المصرية من أوسع الأبواب .

الملازم أول (سابقاً)

كبير المترجمين بالفرقة الثالثة مشاه ميكانيكية
وحالياً أستاذ التاريخ العربى الحديث والمعاصر
فى جامعة موسكو

الدكتور جينادى جورياتشكين
12 سبتمبر عام 2007 ، موسكو

# ذكرياتي

# مقدمه

كان من المحتم علىّ كتابة هذه المقدمة التى تضم ذكرياتى عن تلك الفترة من حياتى حتى ولو كانت تلك المقدمه موجزة .

أولاً: لمرور فترة ليست بالقصيرة على تلك الأحداث التى سردتها فى هذا الكتيب ، وكان من الطبيعى نسيان الكثير من تفاصيل هذه الأحداث .

ثانياً: إن تلك الأحداث التى لازلت حتى الآن أتذكرها قد مضى عليها زمن طويل ،إلى حد ما تم تشويهها للعديد من الأسباب المختلفة . من هنا ظهرت ضرورة إحياء هذه الأحداث فى ذاكرتى وإزالة ما شابها من تشوهات ، ثم تحديثها مع الاحتفاظ بصورتها الماضية الواقعية .

تعتبر الذكريات والتأملات فى أحداث الماضى شيئاً ذاتياً محضاً. يجب وضع ذلك فى اعتبارنا . ولكن على الرغم من أن هذه المذكرات تحمل طابعاً شخصياً ، فهى ضرورية ولازمة للفهم الأفضل للتاريخ . وذلك لأن التاريخ ما هو إلا تفاعل سلوكيات الأفراد على مختلف المستويات سواء الحكومية أم الجماعية أم الفردية .. إلى غير ذلك من المستويات . لذلك فإن ذكريات حتى

الفرد الواحد لها دور فعال لا يستهان به فى استكمال المادة المجمعة والمنشورة فى موضوع معين .

فى كتابى هذا يدور الحديث عن التعاون السوفيتى - المصرى العسكرى المتعدد الجوانب ، كما يثير أيضاً لدى القارئ الأفكار لتتبع دراسة هذا الموضوع والتعمق فى التفكير فيه .
يعتبر هذا الكتيب جزءاً لا يتجزأ من كتاب مذكرات السوفييت المشاركين فى الأعمال الحربية فى مصر وفى الستينات والسبعينات من القرن الماضى . وقد ظهرت مذكرات هؤلاء العسكريين السوفييت لأول مرة على شكل كتاب فى عام 1997، بعد عام واحد من زيارة وفد المحاربين القدماء السوفييت للقاهرة تلبية لدعوة رجل الأعمال المصرى المعروف السيد/ إبراهيم كامل ، الذى ربط مصالحه الاقتصادية والتجارية والاجتماعية بروسيا، فهو نائب رئيس جمعية أصدقاء روسيا فى جمهورية مصر العربية . وبعد مرور حوالى عام صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب بعنوان ( رفع الكود ) سرى جداً .

وفى عام 2001 خرجت إلى النور الطبعة الثالثة من هذا الكتاب التى حوت تسع وعشرون مقالةً قام بكتابتها عدد كبير من السوفييت الذين عاشوا تلك الفترة على مختلف المستويات بدءاً من السيد/ فلاديمير فيناجرادوف نائب وزير الخارجية السوفيتى والسفير السوفيتى بالقاهرة وعدد من كبار الجنرالات السوفييت إلى أصغر رتبة فى القوات المسلحة السوفيتية التى كانت متواجدة فى مصر للمشاركة فى صد العدوان الإسرائيلى .

كانت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب تحمل عنوان (...حينئذ في مصر) ، وقد اشتركت بإحدى مقالاتى التى نشرت فى هذه الطبعات الثلاث .

لقد أسست هذا الكتيب على تلك المقالة مع عمل بعض الإضافات الجوهرية لها، وفى الوقت ذاته أزلت التفاصيل الغير لازمة منها .

يدور الحديث هنا على وجه العموم عن تواجدى فى مصر للعمل كمترجم عسكرى سوفيتى فى الفترة من 26 أغسطس من عام 1969 حتى 26 أغسطس من عام 1971 .

أ.د. جينادى جورياتشكين
الإسكندرية . صيف عام 2003

# ذكريات مترجم سوفيتى
# على الجبهة المصرية

فى شهر يونيو من عام 1969 وبعد انتهائى مباشرة من أداء امتحانات التخرج فى معهد اللغات الشرقية ( الذى أصبح يعرف فى الوقت الحالى باسم معهد بلدان آسيا وإفريقيا ) التابع لجامعة موسكو المسماة باسم « لومونوسوف » ، حيث كنت أدرس هناك منذ عام 1963 اللغة العربية وغيرها من المواد المرتبطة بتاريخ وثقافة وحضارة الدول العربية ، تم استدعائى لأداء الخدمة العسكرية فى صفوف الجيش السوفيتى . أصبح من الواضح الجلى أننى سأقضى مدة الخدمة العسكرية كمترجم عسكرى للغة العربية والتاريخ ، فقد كان تخصصى المبين فى الشهادة الجامعية التى حصلت عليها هو : ( اللغة العربية وتاريخ البلدان العربية ) . لم يكن عندى أدنى شك فى أنه سيتم إرسالى إلى إحدى الدول العربية للعمل هناك كمترجم عسكرى ، ذلك لأن الوضع فى الدول العربية بمنطقة الشرق الأوسط كان قد بلغ أقصى درجات الاضطراب ، وكانت ( حرب الاستنزاف ) تدور رحاها فى جميع أنحاء جمهورية مصر العربية .

لقد تم استدعائى لأداء الخدمة العسكرية بالجيش فى أوائل يوليو. ومنحت رتبة عسكرية بدرجة ملازم . كما حصلت

على أجازة قضيتها مع والدى فى منطقة إيركوتسك بالقرب من بحيرة بايكال الواقعة فى شرق سيبيريا . لقد كنت أحتفظ بخبر استدعائى للسفر إلى إحدى الدول العربية عن طريق وزارة دفاع الاتحاد السوفيتى فى طى الكتمان . حيث أخذوا علىّ تعهداً و التزاماً كتابياً بعدم إفشاء هذا السر العسكرى. لكن والدي كانا يعرفان بالطبع عن تلك المهمة التى كانت تنتظرنى وكانا يعانيان من جراء ذلك كثيراً فقد كنت أنا ابنهما الوحيد الذى لم ينجبا غيره . وقد أصاب الحزن العميق والدتى على وجه الخصوص التى كانت تعمل مدرسة بإحدى المدارس الإبتدائية . أما والدى فكان متماسكاً ومتمالكاً لأعصابه إلى حد كبير بالنسبة لما كانت تعانيه والدتى ، نظراً لأنه رجل فهو أكثر تحملاً ، كما أنه قد اشترك فى القتال فى الحرب الوطنية العظمى ، حيث أصيب بالصمم .

مرت أيام الإجازة مروراً سريعاً غير ملحوظاً . وفى أوائل شهر أغسطس كنت فى موسكو تحت أمر وتصرف هيئة الأركان العامة . وكان قد تم تحديد البلد الذى سيتم إرسالى إليه . وحيث إننى قد أنهيت دراستى بمعهد اللغات الشرقية فى المجموعة التى تدرس اللغتين العربية والفرنسية بهدف العمل فيما بعد فى بلاد المغرب . لذا فقد كان من المتوقع أن أسافر إلى الجزائر كمترجم عسكرى ، حيث كان يعمل الخبراء والمستشارون العسكريون السوفييت هناك منذ سنوات عديدة . بالإضافة إلى ذلك فقد كنت على علم بأن كبير المستشارين العسكريين السوفييت فى الجزائر كان قد طلب منذ فترة طويلة إرسال أحد

المترجمين العسكريين إلى الجزائر الذى يجيد اللغتين العربية والفرنسية إجادة تامة . ولما كان عدد هؤلاء المتخصصين فى بلدنا فى ذلك الوقت قليل جداً يعد على أصابع اليد الواحدة . عندئذ رفضت هذا العرض . وقد حاولوا إقناعى على ما أتذكر لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، لكن دون جدوى . ولا أستطيع أن أجد سبباً وراء رفضى السفر للعمل فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط الذى كانت تتمتع بالهدوء والسكينة . بينما أصررت على السفر إلى مصر حيث كانت غاية فى الاضطراب. فهناك تراشق بنيران المدفعية عبر قناة السويس ، بينما تقوم الطائرات الحربية بطلعات جوية متكررة ، وكذلك كانت قوات السلاح البحرى تؤدى بنشاط دورها الفعال فى هذه الحرب .

لقد توصلت إلى معرفة سبب اتخاذى هذا القرار ، وهو أننى عندما كنت طالباً بالمعهد وكنت أؤدى فترة تدريبى على ممارسة اللغة العربية بمصر . تعرفت حينئذ على اللهجة المصرية عن قرب ، وعقدت العزم على أننى بعد انتهائى من أداء الخدمة العسكرية بالجيش سأقوم بكتابة رسالة دكتوراه عن هذا البلد .

وأخيراً استطعت إقناع القائمين على عملية التسفير بهيئة الأركان العامة بأنه من الضرورى إرسالى للعمل فى مصر .
وأود أن أستطرد هنا قليلاً كى يتفهم القارئ بصورة أكثر وضوحاً أسباب وبواعث مسلكى هذا . ألا وهو لماذا اخترت مصر بالذات كى أسافر إليها للعمل بها ؟ .

والذى حدث أنه قبل ذلك وبعد انتهائى من السنة الدراسية الرابعة بالمعهد أرسلت إلى مصر فى بعثة عملية تدريبية لرفع مستوى الكفاءة لمدة عشرة أشهر ، حيث كان لابد لى من رفع مستوى كفائتى فى معرفة اللغة العربية ،والتعرف على البلد وكذلك جمع كافة البيانات والمعلومات اللازمة لكتابة العمل العلمى للحصول على درجة الليسانس بالمعهد .
ولما كان لابد لى من قضاء مدة هذه الدراسة فى مصر لذا فقد كان موضوع العمل العلمى الذى كان يجب علىّ أن أكتبه للحصول على درجة الليسانس بالمعهد يتعلق بتاريخ هذا البلد وفحواه : « الوضع الاقتصادى لبقية العمال بجمهورية مصر العربية » .

وفى اعتقادى أنه لا حاجة لى لشرح السبب فى اختيارى هذا الموضوع بالذات عن طبقة العمال . فلقد كانت مشاكل الصراع الطبقى وطبقة العمال وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالطبقة العاملة فى المجتمع تعتبر فى ذلك الوقت موضوعات حديثة جديدة مواكبة للعصر وأحداثه ومشاكله . علاوة على ذلك ، فإن المشرفة على رسالتى العلمية الدكتورة / أتسامبا كانت قد كتبت رسالة علمية فيما مضى عن وضع العمال المصريين قبل ثورة يوليو عام 1952 . لذا فقد كان يتعين علىّ أن أستكمل بدورى هذا العمل الذى بدأته مشرفتى العلمية . بالنسبة للوضع فى مصر ذلك الوقت ، فإن طبقة العمال كانت تشغل مكانة مرموقة فى المجتمع المصرى الذى كان آنذاك

ينتهج المنهج الاشتراكى ،وكانت تلعب دوراً هاماً فى سياسته الداخلية . ويكفى أن نذكر أن نسبة 50% من أعضاء مجلس الشعب والاتحاد الاشتراكى العربى كانوا من ممثلى العمال والفلاحين ، وكذلك فى منظمة الشباب الاشتراكى وسائر المنظمات الاجتماعية الأخرى . وخلال فترة مهمتى العلمية الطلابية عن طريق وزارة التعليم العالى بالاتحاد السوفيتى، قمت بجمع مادة علمية جيدة وغزيرة لاستخدامها فى كتابة العمل العلمى اللازم للحصول على درجة الليسانس بالمعهد. وقد وضعت هذه المواد العلمية حين عودتى إلى موسكو فى عشرين صندوق .

كانت فترة تواجدى بمصر ابتداء من شهر نوفمبر 1967 وحتى أغسطس 1968 هى المرة الأولى فى حياتى التى أتواجد فيها خارج وطنى . حقاً إن البلد الأجنبى الأول الذى يسافر إليه المرء كالحب الأول فى حياته ، ولم أكتف فقط بكتابة العمل العلمى لنيل درجة الليسانس عن مصر ، بل وفيما بعد كتبت أطروحة لنيل درجة الدكتوراه عن : « تكون طبقة البلوريتاريا بالمعامل والمصانع بجمهورية مصر العربية ، والوضع المادى لها (فى السنوات من عام 1952 وحتى عام 1970 ) ، وقد دافعت عن أطروحتى بنجاح فى عام 1975 ، وفى عام 1996 أنهيت كتابة رسالة الدكتوراه للدولة ودافعت عنها بنجاح ، وكان موضوعها عن : « تكوين الطبقة العمالية فى مصر فى ظروف التحديث الاستعمارى ( فى الفترة من عام 1841 وحتى 1914 ) » .

وبعد انتهاء إجازتى حضرت إلى القاهرة فى 26 أغسطس عام 1969 . ومن خلال باب الطائرة المفتوح أحسست بحرارة جو شهر أغسطس الشديدة .

لم تستغرق إجراءات الجمارك بمطار القاهرة الدولى وقتاً طويلاً، فلقد كان طريق العسكريين السوفييت إلى مصر فى تلك الأيام ممهداً ومنظماً وبلا أية تعقيدات تذكر .

استقبلنا أحد موظفى هيئة أركان المستشارين العسكريين وهو الجنرال « كاتيشكين » الذى حجز لنا أماكن فى أحد الفنادق المتواضعة وهو فندق « سعود2 » بحى مصر الجديدة بالقاهرة بالقرب من مستشفى هليوبوليس ، وهذا المبنى فى الوقت الحالى لا أثر له ، حيث كان يُعد مسكناً مؤقتاً للمترجمين السوفييت القادمين للعمل فى مصر . ثم بعد ذلك كانوا يقومون بتوزيعنا للإقامة فى أماكن سكنية أخرى وبصفة أساسية كانوا يقيمون فى مجمع الفنادق « نصر سيتى » بمدينة نصر وكان يعيش معنا فى نفس الفندق خبراء عسكريون سوفييت حضروا إلى مصر للعمل لفترات قصيرة ، لازلت أذكر حتى الآن أربعة من بينهم كانوا يدربون الجنود والضباط المصريين على كيفية استخدام القذائف المضادة للدبابات التى تعرف باسم «مالوتيكا » .

كان الفندق الذى نزلنا به فور وصولنا إلى مصر عبارة عن مبنى صغير يتكون من ثلاثة أو أربعة طوابق ، ويقع بالقرب من حمام سباحة . وفى الليلة الأولى لمجيئنا إلى الفندق سمعت

بالصدفة حواراً قصيراً دار بين اثنين من المصريين . حيث سأل أحدهم الآخر : « عائلات » ، فأجابه الآخر : « لا .. عزاب» ، هذا يعنى أننا نعيش فى فندق « سعود2» للرجال العزاب ، أما فندق « سعود1» فقد كان مخصصاً لإقامة العائلات ، كما كان يوجد به أيضاً مكتب الرائد البرديسى .

كان الرائد البرديسى ممشوق القوام حسن المظهر ، وكان معروفاً بالحزم والدقة والنظام والدرجة العالية من الفكر والثقافة ، وقد رقى فيما بعد إلى رتبة مقدم ، كان يرأس قسم « الخدمة الروسية » الذى كان يتبع وزارة الحربية المصرية ويدخل فى حدود اختصاصه تنظيم إقامة وتسكين العسكريين القادمين إلى مصر من الاتحاد السوفيتى ، وتوفير كافة الخدمات اللازمة لهم وتوفير التأمين لهم وغير ذلك .

أقمنابعض الوقت فى فندق « سعود 2ـ» فى انتظار تعيينى وتحديد مهام وظيفتى ، بالإضافة إلى ذلك فلم يكن هناك مكاناً خالياً فى فنادق مدينة نصر ، وبعد مرور حوالى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخبرنى « جيورجى ريئوتسكى»، رئيس مكتب الترجمة بهيئة أركان كبير المستشارين العسكريين السوفييت بأننى سأعمل كمترجم أول بفرقة المشاه الميكانيكية الثالثة التابعة للمنطقة العسكرية المركزية المرابطة على بعد حوالى عشرين كيلومتراً فى طريق القاهرة الإسماعيلية . وبعد فترة قصيرة حضر « فيكتور جافريلوفيتس ستوبين » ، كبير مستشارى الفرقة إلى مكتب

الترجمة ، حيث كنت قد قمت بعمل عدة تراجم تحريرية مع زملائى من المترجمين أمثال فاليرى فجنيفتس من منطقة جبال الأورال ، « يورى ليباكين » من مدينة كييف ، « نيكولاى لوكاشونك » من مدينة كييف ، « نيكولاى لوكاشونك» من مدينة مينسك ، وقد تم إخلاء سرير لى كان يخص أحد المستشارين العسكريين السوفييت الذى استشهد قبل ذلك بفترة وجيزة نتيجة لقصف طائرات « الفانتوم » الإسرائيلية .

كانت الشقة التى عشت فيها تتسع لإقامة أسرة متوسطة العدد ، وهى مكونة من حجرتى نوم وحجرة طعام وصالة ، فنقلنا إلى هناك حيث عشنا كل اثنين فى حجرة ، فقد كنا ثمانية أفراد .

كان المستشار العسكرى السوفيتى الذى استشهد أثناء القصف الإسرائيلى هو ثالث ضابط سوفيتى يستشهد خلال غارات العمق الإسرائيلية . لقد أدى هؤلاء الشهداء الثلاثة واجبهم العسكرى على أكمل وجه كمستشارين عسكريين لقائدى كتائب المدفعية المصرية المضادة للطائرات التى كانت تحمى كتائب الصواريخ المضادة للطائرات .

فى ذلك الحين كانت ( حرب الاستنزاف ) التى أعلنها الرئيس جمال عبد الناصر ضد إسرائيل قد دخلت مرحلة جديدة حاسمة. فبعد تناول إطلاق نيران المدفعية عبر قناة السويس عمدت القوات الجوية الإسرائيلية إلى تدمير وسائل الدفاع الجوى المصرى بصورة مخططة ، بدأت بمنطقة قناة السويس ، ثم امتدت بعد

ذلك إلى داخل البلاد . ومما كان يحز فى نفسى أن جارى فى الحجرة التى كنت أقيم فيها وهو رائد مستشار قائد كتيبة المدفعية الجوية بمنطقة الدلتا كثيراً ما كان يشير إلى نفسه مردداً أنه سيكون الضحية التالية ...

بالنسبة لى فقد كانت هذه المرة الأولى التى أتعرض فيها لمثل هذه المشاعرالمروعه ، وهى سقوط الناس صرعى وقتلى خلال المعارك الحربية .

كانت معرفتى بالحرب وما تجره على البشرية من ويلات هى معرفة قاصرة محدودة لا تتعدى ما كنت قد قرأته عنها فى الكتب ، وما شاهدته فى الأفلام السينمائية ،وما كان يقصه على والدى من واقع مشاهداته على جبهة القتال ، عندما كان يقوم بواجبه نحو وطنه خلال الحرب العالمية الثانية .

الحق يقال ، فإن الوضع كان غاية فى السوء . فحتى الهواء المنبعث من المروحة الكهربائية القوية لم يستطع أن يخفف من شدة حرارة ورطوبة الهواء ، أو أن يبعد عن خاطرى تلك الأفكار السوداء المقيتة من أننى أنام على نفس السرير الذى كان ينام عليه المستشار العسكرى السوفيتى الذى لقى حتفه أثناء القصف الإسرائيلى منذ فترة وجيزة . هذا بالإضافة إلى أننى قد اشتركت فى إعداد قائمة بمتعلقاته وحاجاته الشخصية ، وتم إرسالها إلى موسكو .

فى هذه الأيام كثيراً ما كانت تراودنى أحلام مفزعة تقلقنى وتقضى على مضجعى ، فكنت أرى نفسى مصاباً فى قدمى

أهرب أو بصورة أدق أزحف هارباً من أحد معسكرات الاعتقال والتعذيب الإسرائيلية تحت الأسلاك الشائكة التى تحيط بالمعسكر بينما أسحب معى إحدى الفتيات.

كانت قوات الفرقة الثالثة الآلية ترابط فى منطقة الهايكستب ، حيث كانت تتواجد هناك ثكنات جيش الاحتلال الإنجليزى قبل قيام الثورة المصرية فى عام 1952 . لذا ففى صباح كل يوم كنا جميعاً ـ المستشارين العسكريين والمترجمين السوفييت ـ ننتقل بواسطة ميكروباص أزرق اللون إلى منطقة الهايكستب ، ثم نعود فى المساء إلى مدينة نصر . كان يقوم معى بأعمال الترجمة مترجمان آخران يجيدان اللغة الإنجليزية ، حضرا من الاتحاد السوفييتى ، ويعاونهم بعض المصريين الذين أتموا فى القاهرة فصلاً دراسياً لتعليم اللغة الروسية مدته ستة أشهر.

وفقاً للتصريح الذى أدلى به الجنرال شوكين - نائب المستشارين العسكريين السوفييت بالقسم السياسى - فى أحد الاجتماعات التى ضمت جميع المترجمين العسكريين السوفييت ، فقد وصل عدد المترجمين السوفييت الذين كانوا يعملون آنذاك فى كل أنحاء مصر إلى حوالى 500 مترجم . كان عدد المترجمين العسكريين السوفييت الذين يجيدون اللغة الإنجليزية يفوق عدد الذين يجيدون اللغة العربية . من بين المترجمين السوفييت الذين يتحدثون اللغة العربية ، كان هناك طلبة أنهوا الفصل االدراسي الثانى بالمعهد العسكرى

للغات الأجنبية ، وحضروا إلى مصر لقضاء فترة تدريبية بها .
لقد حضر زملائى من المترجمين السوفييت من أماكن عديدة مختلفة : من أوزبكستان ، أذربيجان ، أوكرانيا ، أرمينيا ، موسكو ، لينجراد ، من ضفاف نهر الفولجا وشمال القوقاز وغيرها .

وقع العبء الأكبر فى أعمال الترجمة على عاتق المترجمين السوفييت المتخصصين فى اللغة العربية ، وعلى وجه الخصوص هؤلاء الذين كانوا على علم ودراية من قبل باللهجة المصرية .
لم تمح من ذاكرتى حتى يومنا هذا أعمال الترجمة الشفهية الفورية التى كنت أقوم بها أثناء التدريبات العسكرية العملية لجنود وضباط الجيش المصرى ، وكذلك خلال الاجتماعات المختلفة التى كانت تعقد بصفة دورية منتظمة .

هكذا فقد كنا نقوم بالترجمة الفورية ، حيث كان معظم المستشارين والخبراء العسكريين السوفييت يتفهمون تماماً وضع المترجم العسكرى باعتباره مهندسا حديث التخرج يحتاج إلى تهيئة وإعداد فى مجال الإعداد التخصصى حتى لو كان لفترة قصيرة . لكن لم يكن هناك وقتاً كافياً لذلك. لقد تطلب الوضع المشتعل بدء العمل على وجه السرعة بالرغم من صعوبة اللهجة العامية المصرية .

على الرغم من وجود بعض المعوقات والصعوبات عند الترجمة فقد كانت العلاقات بين المستشارين ومن يعملون معهم من المصريين جيدة . لقد كانت أعمال الترجمة تتم صباحاً، ومساءً

داخل الخيمة وفى الصحراء ، وفى العراء أو داخل السيارة الجيب أثناء التدريبات العسكرية فى التراب والرمال المريعة . لقد كان الواجب يحتم علينا العمل فى مختلف الظروف والأحوال، فعملنا ضمن كتيبة دبابات ومع أفراد لواء المدفعية وكتيبة المركبات وغيرها .

يحضرنى الآن أنى قد قمت أيضاً بالترجمة فى مكتب قائد الفرقة فى نفس الوقت ، بينما كان يتم قصف لواء دبابات مجاور لنا ومستقل عنا بالقنابل . وعندما سمعت أصوات سقوط قنابل مدوية ، كنت أول فرد يندفع من خلال الباب ، وقفزت فى الحال فى خندق على شكل برميل يقع على مسافة حوالى عشرة أمتار من المبنى الذى كنا فيه . تبعنى إلى هذا الخندق أحد الجنود الذى قفز ورائى فى الخندق ، فهوى على ظهرى بشدة بحذائه الضخم المطعم بالحديد . وبعد مرور عدة دقائق عاد الهدوء إلى المكان مرة ثانية ، فرجعت إلى مكانى . شعرت بالخجل والحرج الشديدين أمام قائد الفرقة ورئيس الأركان والسيد / ستوبين الذين ظلوا جالسين بهدوء على مقاعدهم ، ولم يصبهم الذعر أو الهلع . أما أنا فكنت الوحيد الذى هرعت من المكان وكأن الريح قد عصفت بى على حين غُرة أعتقد أنه كان من الأفضل لى أن أجلس معهم بدلاً من الألم الذى عانيت منه فى ظهرى نتيجة سقوط الجندى على فى الخندق بحذائه المطعم بالحديد .

كانت الحيطة والحذر فى بعض الأحيان سبباً فى إنقاذ المترجمين الشبان من الخطر المحدق بهم ، يكفى أن أذكر هنا

حدثين من هذا القبيل :

أحدهما حدث فى منطقة الدلتا فى كتيبة مدفعية مضادة للطائرات ، فما أن بدأ قصف القنابل حتى أسرع المترجم تاركاً مركز القيادة . أما المستشار العسكرى السوفيتى وقائد الكتيبة فقد ظلا فى مكانهما ولم يغادراه ، كى يستعرضا هدؤهما وعدم اكتراثهما بما يحدث حولهما ، وما هى إلا بضعة لحظات حتى سقطت عليهما إحدى القنابل التى أودت بحياتهما معاً . بينما ظل المترجم على قيد الحياة .

أما الحدث الثانى المماثل له فقد وقع للعقيد كبير مستشارى إحدى الفرق التابعة لأحد الجيشين الميدانيين اللذين كانا يرابطان على طول جبهة قناة السويس . فبينما كان كبير المستشارين عائداً إلى فرقته على جبهة قناة السويس بعد أجازة لمدة يومين ـ كانت تمنح عادة فى يومى الجمعة والسبت ـ توقفت السيارة التى كانت تقلهما فجأة فى الطريق. من الجائز أن يكون السائق قد أحس بوجود خطر ما ، أو يكون قد سمع أصوات انفجارات أمامهم ، على وجه العموم ليس هذا هو المهم . المهم أن ذلك قد حدث فى منتصف الطريق إلى القنال . فالمدفعية الإسرائيلية لم تتمكن من الوصول إليهم فى هذا المكان من الضفة الشرقية لقناة السويس .

مهما يكن الأمر فما أن توقفت السيارة حتى أسرع المترجم خارجاً منها ، وانبطح على الأرض وغطى رأسه بيديه من شدة

الخوف والهلع ، أما كبير المستشارين فقد وثب من السيارة متمهلاً على غير عجلة وأخذ يهز رأسه فى لوم وعتاب آخذاً على المترجم جبنه وشدة خوفه . وهنا سمع فى التو واللحظة صوت انفجار صاروخ . لم يُصب المترجم بأى سوء ، بينما أطاحت إحدى الشظايا بنصف رأس العقيد .

كانت أصعب أنواع الترجمة تلك التى تتم أثناء تدريبات الأركان والقيادة على مستوى الفرقة والجيش . كان يشترك فيها غالباً المترجمون السوفييت من ذوى الخبرة الذين يجيدون اللهجة المصرية إجادة تامة فهماً وتعبيراً ، فذلك النوع من الترجمة كان يختلف اختلافاً تاماً عن الترجمة أثناء إجراء المباحثات والمداولات بين المستشارين العسكريين السوفييت والضباط المصريين العاملين معهم ، ففى هذه الحالة يمكنكم الترجمة بهدوء وروية . فهكذا أيضاً كان يدور أى حوار أو مناقشة بينهما .

كان شرح وتحليل هذه التدريبات يتم عادة فى مكان واسع فسيح ، حيث كان يحضرها بضعة عشرات على أقل تقدير. يبدأ قائد فرقة الجيش أو أحد القواد العسكريين من ذوى الرتب العليا هذا الاجتماع الذى كان فى البداية يسير بصورة منتظمة ثم تبدأ بعد ذلك المناقشات والمداخلات ، ويقاطع الضباط بعضهم البعض أثناء المناقشة وأحياناً يتدخل السوفييت فى هذا النقاش . وهذا كله يشكل بالنسبة للمترجم صعوبة بالغة ، فعلى الرغم من كل هذه الصعوبات فى الترجمة ، فإن

المستشارين كانوا يريدون فهم ومتابعة كل ما يدور فى هذا الاجتماع دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة ، لذا فكثيراً ما كنت أحس بستوبين ، يلكزنى بكوعه فى جنبى يستحثنى على ترجمة ما يدور من أحاديث ومناقشات جانبية . وعندما كنت أصمت قليلاً ، ولو لبضع لحظات كنت أحس بذلك بصورة أكثر وضوحاً مستفسراً منى وسائلاً إياي : « عن أى شئ يدور الحديث؟» فكنت أتابع ترجمة حديث ونقاش الجنرالات والضباط المصريين . هذا بالرغم من أن هذا الحديث قد يطول إلى الساعة أو الساعة والنصف أو الساعتين ، بل وأحياناً إلى الثلاث ساعات .

كانت شروح هذه التدريبات العسكرية تستغرق أوقاتاً طويلة ، تمتد أحياناً إلى الأربع أو الخمس ساعات على التوالى، تتخللها بالطبع فترات راحة قصيرة لتناول بعض المشروبات كالشاى والقهوة والكوكاكولا .

كان الوضع فى بعض الأحيان يصل إلى درجة عالية من الجدية، بل وأحياناً يصل إلى حد يبدو وكأنه معركة كلامية . أنا لا أتحدث هنا عن تلك التعقيدات الإضافية التى أوجدتها وسببتها ( حرب الاستنزاف )التى اندلعت فى شهر مارس من عام 1969 .

كان يجب على أن أبذل قصارى جهدى فى ترجمة كل ما يدور غير منتظراً أن يلكزنى أحد بكوعه مستحثاً إياي على مواصلة الترجمة دون أى توقف . لقد كانت ترجمة فورية

حقيقية ، ليست كتلك الترجمات الفورية التى استوجب الأمر المشاركة فيها فى موسكو .

كان المترجمون يقومون بالترجمة الفورية فى الاجتماعات التى كان يعقدها الحزب الشيوعى السوفيتى ، والنقابات وغيرها من الاجتماعات والندوات الأخرى والدولية الهامة . وكثيراً ما كان هؤلاء المترجمون يقرأون نص الترجمة المعد فيما قبل ذلك ، إذ بينما كان الخطيب يلقى خطابه من فوق المنصة . كان من المهم أن تتزامن قراءة الترجمة المعدة مسبقاً مع كلمات المندوب المتحدث ، فلا تسبقه ولا تتأخر عنه ، وتنتهى تماماً مع نهاية حديثه .

بالطبع فقد كان المترجمون - حينذاك - يقومون بالترجمة الفورية بصورة صحيحة فى قصر المؤتمرات وقاعة العمدة ، وفى دور الاتحادات وغيرها . وإنى أعرف الكثيرين من هؤلاء المترجمين وأكنُ لهم تقديراً واحتراماً .

لكن تحليل وشرح التدريبات العسكرية ، والذى كان يمتد إلى ثلاث أو أربع ساعات وأحياناً إلى أكثر من ذلك ، أمرُ مختلفُ تماماً ، إذ كان النقاش يشتد ويتحول إلى حوار ساخن ونتيجة لذلك تتراكم الأعباء على المترجم . لذا فقد كان يجب علىّ تركيز كل اهتمامى على فهم الجو العام للنقاشات الدائرة لكى تبدو الترجمة التى كانت تتم فى هذه الحالة مفهومة بوضوح .

إلى جانب ذلك ، فقد كان مثل هذا النوع من الترجمة يزداد

تعقيداً وفقاً لظروف وملابسات أخرى متعددة ، منها على سبيل المثال : إن كثيراً من المتحدثين - فى جُل الأحيان - كانوا يجلسون على مسافات بعيدة منى ، وقد ولوا ظهورهم لى ، بينما كان هناك آخرون يعانون من عيوب فى نطق بعض الحروف ، أو يتحدثون بصوت منخفض غير مسموع ، بينما كان البعض يتعمد أن يتحدث بصوت غير واضح وبضرورة غير مفهومة وكأنهم لا يريدون أن يسمعهم أحداً غيرهم ويفهم ما يقولون .

فعلى سبيل المثال ، كانت أصوات الحروف العربية تنشأ وتموت فى حنجرة قائد الفرقة الميكانيكية الثالثة السيد / حجازى ولا يسمع منها شيئاً ، فكانت الكلمات تسمع فى الحلق وكأن هناك « خليطاً ما غير متجانس من الأصوات » ، أو غرغرة كتلك التى تصدر من الأجهزة الألكترونية . وفى هذه الحالة فإن لكزة كوع السيد / ستوبين لى فى جنبى لم تكن لتساعدنى - بأى حال من الأحوال-فى القيام بأعمال الترجمة .

لكن على وجه العموم ، فإن السيد / ستوبين كان ينتمى لفئة الأشخاص اللامعى الذكاء : إذ كان يدرك - بحصافته - كنة الموضوع ويلم بمضمون ما يدور حوله ويتعمق فى جوهر المسألة مما سبق من أحاديث ومن مجريات الأمور حوله ، فقد كان يدرك أن المترجم عاجز عن القيام بشئ ما حيال مثل ذلك الوضع المعقد .

لكن هذا التفهم لم يكن دائماً متوفراً لدى آخرين . ففى مثل هذه الأحيان كان المترجم يصبح هو « كبش الفداء» سواء

أكان مذنباً أم غير مذنب ، حيث أنهم عادة ما يحملونه نتائج عدم نجاح المباحثات التي دارت بين المستشارين والضباط المصريين العاملين معهم ، نظراً لعدم فهم بعضهم البعض الفهم الصحيح .
لكن عدد هذه الخلافات ووقائع سوء الفهم بسبب أخطاء المترجمين كان قليلاً جداً .
استمرت الهجمات و الغارات فى العمق ، وأصبح لازماً إنقاذ الموقف .

جاءتنا أنباء عن إعادة تمركز الفرقة الميكانيكية الثالثة التي كانت تعتبر فى رأى المتخصصين العسكريين أفضل فرقة فى الجيش المصرى على الإطلاق . وكان قائد الفرقة السيد/ حجازي - على حد تعبير الرئيس جمال عبد الناصر- يعتبر واحداً من أفضل قواد الجيش المصرى العسكريين . وكان قد تم قبل ذلك نقل أحد ألوية الفرقة إلى الجنوب ، إذ كان الهدف من إعادة التمركز هو توفير الحماية و الأمن للقوات .
لذا فقد اتخذت القيادة العسكرية والسياسية المصرية العليا قراراً بإعادة تمركز اللواء العاشر من فرقتنا و نقله إلى شاطئ البحر الأحمر بمنطقة سفاجا و الغردقة و جمصة.

كان لهذا اللواء مهمة قتالية أخرى هى الحماية والدفاع عن تلك المساحة الكبيرة البعيدة من الساحل البحر المصري الممتدة بمحاذاة خليج السويس و البحر الأحمر ، حيث كانت القوات الإسرائيلية تقوم بهجمات تخريبية استفزازية من وقت لآخر . وقد استطاع الإسرائيليون القيام بالعملية العسكرية المعروفة

باسم «الإغارة» بنجاح مستخدمين الدبابات السوفيتية الصنع التي استولوا عليها أثناء حرب الأيام الستة في عام 1967 ، كما ارتدوا أيضاً الزي العسكرى المصرى وتمكنوا من أخذ محافظ البحر الأحمر في الأسر عندما كان يقوم بعملية تفقدية بالمنطقة الواقعة على إمتداد شاطئ البحر .

وبهذه المناسبة فإنى أذكرهنا أن الإسرائيلين قد استخدموا أيضاً هذا الأسلوب المخادع فى تنفيذ بعض عملياتهم العسكرية بنجاح أثناء حرب أكتوبر عام 1973 . فبعد عملية عبور قناة السويس الناجحة التى قام بها المصريون و استيلائهم على خط بارليف الحصين بالضفة الشرقية للقناة ، قام الإسرائيليين بعد فترة قصيرة بعملية عسكرية مضادة رداً على ذلك تم فيها إنزال قوات إسرائيلية بالضفة الغربية لقناة السويس بمنطقة البحيرات المرة ، حيث استولوا على رأس كوبري بهذه المنطقة . و قد استخدموا فى هجومهم هذا مرة أخرى الدبابات السوفيتية الصنع متنكرين في الزي العسكري المصرى .

اقترب الإسرائيليون من التشكيلات الفرعية للدفاع الجوى المصرى التى كانت تحمى سماء مصر من الطائرات الإسرائيلية عن طريق تكوينها مظلة جوية ، حيث حاصروها وأطلقوا عليها وابلاً من الرصاص .وفى الحقيقة كان لهذه التشكيلات المصرية المضادة للطائرات الفضل الأول و اليد الطولى فى إنجاح عملية الهجوم المصرى فى الساعات و الأيام الأولى من حرب أكتوبر 1973 .

بعد مرور فترة وجيزة على نقل اللواء العاشر ، تقرر إعادة نشر وتمركز سائر وحدات و تشكيلات الفرقة الثالثة الميكانيكة بصورة عملية لنفس هذه الأهداف إلى الجنوب من منطقة الهايكستب .
قبل تحريك ونقل الفرقة الثالثة للمشاة الميكانيكية ، قامت القيادة ومستشاروا الفرقة برحلة استطلاعية بسيارات الجيب حتى مدينة أسوان .

لقد كانت بحق رحلة رائعة ومفيدة جداً للتعرف على البلد. كان طابور سيارات الجيب كثيراً ما يتوقف أثناء الطريق لتسجيل بعض الملاحظات اللازمة على الخريطة أو القيام بمباحثات ومشاورات فى المراكز الريفية وتبادل الآراء بين المحافظين والرؤساء العسكريين المحليين . بعض هذه المدن التى زرناها تركت لدينا انطباعاً جميلاً وأثراً كبيراً لا يمحى .

بدأنا رحلتنا من محافظة الجيزة ثم المنيا ثم بني سويف وسوهاج و أخيراً وصلنا أسيوط بلد سائقنا أحمد . كان أحمد فتى لطيفاً أسمر اللون ذا شعر مجعد . و قد منحه ستوبين أجازة أثناء توقفنا لفتره طويلة بمدينة أسيوط كى يزور والديه هناك . ويمكننى أن أتصور وأتخيل مدى الفخر والفرحة التى كان يحس بهما أحمد فى أعماقه ، فقد استقل عربتنا الجيب ورحل فى سعادة غامرةإلى منزل أهله حيث ينتظره الأهل والأقارب الكثيرى العدد.

كانت مدينة أسيوط – ((عروس صعيد مصر)) – بلداً جميلاً

مضيافاً .وقد انتظرنا أهل أسيوط بدءاً من محافظ المدينة الذى كان فى استقبالنا لحظة وصولنا إلى المدينة حيث أخذ يروى لنا العديد من المعلومات والبيانات الشيقة عن عاصمة الصعيد، وانبهرنا بالمواطنين البسطاء الذين كان معظمهم يرون لأول مرة فى حياتهم (خبراء سوفييت) يرتدون الزى العسكرى المصرى. كان الشباب والفتيات الصغار من أهالى مدينة أسيوط يلازموننا ويتبعوننا على الدوام و يقفون بالقرب منا ، وبالأخص على شاطئ النيل الذى يطلق عليه أهالى المدينة (الكورنيش ) ويسمون النيل (البحر) .

كان من الواضح أن الأولاد فى مدينة أسيوط لم يتم تدليلهم بعد- وربما من جانب السياح والأجانب - فلم يكونوا ملحين ولا متطفلين كأترابهم من أولاد مدينتى القاهرة والإسكندرية الذين كانوا يتبعوننا فى جحافل بالعشرات لمئات الأمتار ، متشبثين وممسكين بأيدينا وملابسنا يطلبون منا حقهم المشروع فى البقشيش. أما أولاد مدينة أسيوط فكانت تصرفاتهم تنم عن عزة نفس وكبرياء ، ويبدو من نظرات أعينهم أن الدافع لملاحقتهم لنا هو قبل كل شئ حب الاستطلاع، والاهتمام الكبير ، والطبيعة الطفولية ، علاوة على النشاط والحيوية الغير عادية والتى تفوق الحد.

أخيراً كانت المحطة التالية فى رحلتنا وهى مدينة قنا (جنا باللهجة الصعيدية أو إنا بلهجة باقى سكان مصر ).

وهنا كان الخبراء الأجانب أو بلهجة أهالى قنا (الخبرا الأدانب)

وضباط الفرقة الثالثة مشاة أو (مش ميكا) كما كان الجنود والضباط يطلقون عليها ، يتوقفون لمدة أطول قليلاً نظراً لأنه كان معلوماً فى القاهرة بأن الفرقة قد تم إعادة تمركزها هنا فى هذا الموقع بالذات . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن النيل هنا فى هذا المكان كان أكثر اقتراباً من أى مكان آخر فى البحر الأحمر ، ويقع على بعد 160 كيلومتر فقط من هذا الموقع . وكانت القيادة السياسية والعسكرية تعتقد بأن إسرائيل يمكنها بسهولة هنا فى هذا الموقع القيام بشطر وادى النيل وفصل شمال البلاد عن جنوبها . وكانت قوات الكوماندوز الإسرائيلية قد قامت قبل ذلك بوقت قصير بتفجير محطة التحويل الكهربائى الفرعية فى نجع حمادى بالقرب من مدينة قنا . وقد تواجدنا هناك وصعدنا إلى أعلى قمة جبلية فى المنطقة بالقرب من هذه المحطة الفرعية حيث هبطت مروحيات العدو .

يمتد من البحر الأحمر حتى مدينة قنا طريق معبد رائع . بالإضافة إلى ذلك فهناك وديان عميقة متعددة تقطع المرتفعات الصخرية المنخفضة بدءاً من الشاطئ وعلى امتداده حتى وادى النيل . وقد قمنا بتتبع إحدى هذه المرتفعات سائرين بسيارتين بمحاذاته إلى مسافة 20 كيلومتر . فترائى لنا الوادى كطريق مستو تقريباً ، رائع خلاب ، مدكوك فى مكان خالٍ تماماً من الناس .

كان من الواضح أن هذه الوديان تعطى الإسرائيليين إمكانية ممتازة لا مثيل لها للاختباء خلفها والزحف فى سرية تامة إلى

وادى النيل . كما كان أيضاً من الصعب كشف قفزاتهم من خلال الوديان نظراً لأنها كانت عميقة جداً .

وهكذا انتهت الرحلة التى كانت بالنسبة لى مؤثرة للغاية، حيث أنها أثرت و جدانى بانطباعات جديدة لا تمحى عن تلك الأماكن النائية من صعيد مصر التى لم أزرها قط فى حياتى من قبل ، هذا على الرغم من صعوبة الطريق ووعورته والجلوس الدائم لفترات طويلة فى عربة الجيب المتأرجحة و غير ذلك من الصعوبات التى واجهتنا خلال هذه المهمة .

لم تكن هذه المهمة هى المهمة الاستكشافية الأولى بالنسبة لى، فقد قمنا قبل ذلك برحلة استطلاعية مماثلة إلى مدينة رشيد الواقعة عند مصب فرع النيل الأيسر . وكانت مجموعتنا حينئذ تتكون تقريباً من نفس هولاء الأفراد الذين ذهبوا إلى أسوان فقد كانت تتألف من الضباط المصريين و المستشارين العسكريين تحت قيادة السيد/ حجازى قائد الفرقة و كبير المستشارين فيكتور ستوبين .

وقبل ذلك بنحو عام أو عامين مضت قمت برحلة إلى مصب فرع النيل الأيمن ( فرع دمياط) ضمن مجموعة من الطلاب ، وهى الرحلة التى قام بتنظيمها النادى الدولى للوافدين الأجانب الواقع بحى الدقى بالقاهرة . لقد سحرتنا حينئذ مدينة دمياط الساحلية وهى ميناء بحرى وتُعد مركزاً لأقليم ريفى يحمل نفس الاسم .

لقد فتنتنا مدينة دمياط بصخورها وأمواجها المتلاطمة عند الشاطئ. إنها صخور دمياط بعينها تلك التى ذكرها فى أشعاره الكاتب الروسى الرائع نيكولاى جوميليوف، وهى أيضاً نفس هذه الصخور التى كان يشاهدها الحجاج الرحالة الروس الذين كانوا كثيراً ما يذكرون مدينة دمياط فى مذكراتهم التى يدونونها عن رحلاتهم هذه إلى بيت المقدس.

أريد أن أختم حديثى عن تلك المهمة الاستطلاعية فى جنوب مصر متطرقاً إلى ذلك الصدام الذى حدث بينى وبين ستوبين والذى أعتقد أنه كان كثيراً ما يحدث مع العديد من المترجمين.

فقد قررنا فى إحدى المحطات التى توقعنا عندها تناول شيء من الطعام الخفيف. طلب منى كبير المستشارين إحضار حقيبة المؤن والأطعمة من السيارة الجيب ولكنى رفضت طلبه هذا.

وقد لاحظ الكثير من الموجودين هذا، وأعقب ذلك لحظة صمت ثقيل. عندئذ قام السائق أحمد الذى فهم الموقف بدون أى كلام بإحضار حقيبة الماء والطعام لستوبين. خيم الصمت علينا لبعض الوقت، بل لقد وصل الأمر إلى حد أننا لم نعد نتجاذب أطراف الحديث فيما بيننا، ولكن عندما قربت الرحلة على الإنتهاء ذاب الخلاف فيما بيننا و عادت المياه إلى مجاريها مرة أخرى.

لقد كنت كغيرى من زملائى المترجمين أفقد أعصابى عندما يطلب منى طلباً كهذا معتبراً أن ذلك يحط من قدرى و أن مثل هذه الأعمال يقوم بها جنود المراسلة وليس المترجمون الذين

لا يدخل هذا العمل ضمن مهامهم . لا يمكن تحديد السبب فى ذلك التصرف ..هل هى كرامتنا ، أم الشهادة الجامعية التى حصلنا عليها ، أم أنه اندفاع الشباب ، أم هو على وجه العموم - فى هذه الحالة- طبعى وخلقى الذى لا يسمح بقبول فرض أى قرار على ؟... أو ربما كان لكل هذه العوامل التى ذكرتها بعالية مجتمعة أثرها فيما حدث . على أية حال .. فإنى قد اعتبرت هذا الطلب الذى يتسم بصفة الأمر هو إهانة بالنسبة لى .

هناك أمثلة أخرى من نوع آخر تستحق الاحتذاء بها . فلا يزال حتى الأن محفوراً فى ذاكرتى ما رواه لى أحد أصدقائى الذى كان يعمل مترجماً عسكرياً فى الأسطول البحرى الحربى المصرى من أن قائد السفينة الحربية السوفيتية الذى كان عليه أن يقوم بالترجمة للمصريين على متنها قال له قبل النزول على سلم السفينة لملاقاة المصريين : (( اعذرنى يا صديقى فأنا فى الزى الرسمى العسكرى فاحمل عنى من فضلك حقيبتى )) . لقد كنا نستوعب مثل هذا النوع من المعاملة ونتفهم دواعيه ولم يكن هناك بالطبع أى رفض من جانب المترجمين فى مثل هذه الأحوال لطلبات القادة والرؤساء و المستشارين .

إن ماضينا الدراسى الجامعى ، بل ومجرد الكرامة الإنسانية أيضاً لم يكونا ليسمحا لنا بالتصرف بطريقة غير هذه ، أما التطاول والطريقة المهينة فى المعاملة من جانب الرؤساء والقادة والمستشارين العسكريين ، مثل هذه الفلتات من جانب هولاء القادة و المستشارين كانت قليلة ولكنها كانت تحدث .

ومرات أخرى كانوا يتطلعون إلى المترجم وكأنه إنسان من نوع آخر مختلف عنهم تماماً . ليس عبثاً أننا كثيراً ما كنا نحب التكرار والسرد والإستشهاد بأحد الأوامر الكتابية التى عادة ما كانوا يصدرها القادة كدليل قاطع على علاقاتهم الغير سوية بنا ، فعلى سبيل المثال كان يصدرون مثل ذلك الأمر الكتابى : نرجوكم أن ترسلوا لنا 5 دبابات ومدفعين و 1000 قذيفة وعشرين صندوق طلقات و 500 قنبلة ، 100 مدفع رشاش و مترجم واحد .

كان مضمون هذه العبارة المتكررة تقليدياً يتغير كثيراً ، لكن المعنى والجوهر كان يظل كما هو بدون تغيير .

ربما كان ذلك مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقرارى الثلاثى الذى اتخذته بعدما أديت مدة خدمتى العسكرية الإلزامية لمدة سنتين المفروض العمل خلالهما بالتمام والكمال ، وكان قرارى هو :عدم البقاء فى الجيش ، عدم العمل كمترجم ، وعدم السفر فى مهمة طويلة المدة وحيداً .

لم يكن فيكتور ستوبين يسمح لنفسه الإهانة أو التحقير من شأن أحد المترجمين باستثناء حادثة واحدة أو ربما حادثتين ، بل وقد حدث هذا كما يقولون بضجر وعلى مضض منه .وبهذه المناسبة فهو إنسان يستحق الحديث عنه بإسهاب وبصورة أكثر تفصيلاً ، نظراً لأنه ـ من وجهة نظرى - كان يجسد ويمثل كل ماهو جيد وحسن وكان أفضل بكثير من غيره من المستشارين العسكريين السوفييت

الذين كانوا يعملون فى مصر فى تلك الأوقات الصعبة .

لقد حضر للعمل فى مصر من مدينة كورسك حيث كان يخدم هناك فى الجيش كمساعدِ لقائد الفرقة .
فى عام 1969 كان قد بلغ الثانية والخمسين من عمره . قالت عنه زوجته نيلا سيرجييفنا - " لقد كان طوال حياته إنساناً غاية فى التواضع فلم يحدث أن تكلم عن نفسه أبداً" . قرب نهاية الحرب الوطنية العظمى أصبح قائداً لإحدى الكتائب الاستطلاعية فى الجيش السوفيتى . بعد انتهاء الحرب ترقى حتى وصل إلى رتبة عقيد . ولكن حدثت ذات مرة أثناء التدريبات الدورية التى كان متواجداً بها حينئذ مندوب من وزارة الدفاع واقعة مؤسفة مفاجئة : ففى أثناء رماية طاقم هاون بالذخيرة الحية أدخل أحد أفراد الطاقم قذيفة تلو الأخرى فى ماسورة الهاون مما أدى إلى انفجار القذيفتين بالماسورة ونتج عن ذلك استشهاد جميع أفراد الطاقم . وتسببت هذه الواقعة المريعة فى إنزال رتبته إلى رتبة نقيب ، واضطر ستوبين كى يترقى مرة أخرى إلى رتبة عقيد أن يعاود الخدمة فى الجيش السوفيتى للمرة الثانية بدءاً من هذه الرتبة الجديدة .

عند مجيئه إلى مصر أوكلت إليه مهام كبير مستشارى الفرقة الثالثة الميكانيكية مشاة . وبعد مرور بعض الوقت ظهرت أنا فى هذه الفرقة فى وظيفة كبير المترجمين .

وبعد مرور وقت قصير نسبياً من بدء خدمتى بهذه الفرقة انتهت سفرياتى الهادئة إلى حد ما من مدينة نصر إلى الهايكستب

والعودة، حيث كنت أقوم خلالها بإبلاغ المستشارين العسكريين السوفييت وإحاطتهم علماً بآخر الأنباء وأحدثها التى كانت تنشر بالصحف المصرية الهامة مثل «الأهرام» و«الأخبار» و «الجمهورية» .

فى خريف عام 1969 أخذ الطيران الإسرائيلى يقوم بغارات فى العمق ، فلم تكن تعترضه بطبيعة الحال أية وسيلة جادة من وسائل الدفاع الجوى من الجانب المصرى ،حيث أن وسائل الدفاع الجوى المصرى كانت قد دمرت تماماً فى بداية الحرب .

أخذت طائرات «الفانتوم» و«الميراج» و «السكاى هوك» الإسرائيلية تقصف بضراوة وتدمر بشدة وعنف المنشآت المصرية الاقتصادية الحيوية الهامة كالمصانع والمحطات الفرعية وطرق وخطوط المواصلات والمدارس ( على سبيل المثال واقعة قصف مدرسة بحر البقر بمنطقة أبو زعبل ) .

لقد حاول الإسرائيليون بذلك إضعاف الروح المعنوية للشعب المصرى ، ومن أجل هذا كانوا يتخيرون للقيام بعمليات الضرب الجوى الأوقات والفترات الزمنية الحساسة التى يتجمع فيها أكبر عدد من المواطنين المدنيين مثل مواعيد تغيير ورديات العمال والموظفين بالمصانع وأيام استلام العمال والموظفين لأجورهم ومرتباتهم .

لقد توصلت عن طريق قراءة الأخبار العادية التى كانت تنشر آنذاك فى الصحف المصرية إلى أن عدد القتلى المدنيين نتيجة إحدى هذه الهجمات الجوية لم يقل عن مائة أو مائة وخمسين فرداً.

وكان من الطبيعى ومن البديهى أن يستهدف القصف الجوى القوات العسكرية المصرية كذلك .

لقد كان الهدف الرئيسي من حضور المستشارين العسكريين من الاتحاد السوفيتى إلى مصر هو إعداد وتدريب قوات الجيش المصرى التدريب العسكرى الكافى واللازم لخوض غمار المعركة ضد العدو الإسرائيلى ، إلا أن تلك التدريبات العسكرية قد أحبطت وباءت بالفشل إلى درجة كبيرة ذلك على الرغم من تواجدنا من بداية شهر فبراير من عام 1970 بصفة دائمة مستمرة بالفرقة ،حيث كنا ننام فى المخابئ والمخيمات ونتناول طعامنا فى مطعم الضباط « الميس ».

لا زلت حتى الآن أذكر هذه اللحظات جيداً .وقد استكملت فى ذلك الوقت العام الخامس و العشرين من عمرى ، أى ربع قرن ،لذا فإن هذا التاريخ لا يزال محفوراً فى ذاكرتى حتى يومنا هذا. وقبيل حلول عيد ميلادى الخامس والعشرين طلبت إذناً من المستشار العسكرى الذى حل محل ستوبين أثناء فترة إجازته التى كان يقضيها آنذاك فى الاتحاد السوفيتى بالسماح لى بالذهاب إلى الهايكستب فقد كنت أريد شراء بعض الأطعمة والخضر والفواكه وبعض المستلزمات الأخرى كى أعد غذاءً متواضعاً للاحتفال مع أصدقائى بعيد ميلادى الخامس والعشرين .

فى الصباح فى حوالى الساعة السادسة استقيظت فجأة على صوت قرع شديد على الباب لدرجة أن الباب كاد أن ينخلع من

مكانه وسمعت صوت أحد الخبراء العسكريين السوفيت وهو يصيح بأعلى صوته « إشارة إنذار لابد من التجمع عند المدخل في خلال 15 دقيقة ،مع مراعاة إحضار كافة الأشياء اللازمة ».

عند محاولاتى الاستفسار إلى أين سنتوجه ؟ ، ولماذا ؟ وما هى الأشياء التى سوف نأخذها معنا ؟ لم أتمكن من معرفة أى شئ سوى أننا سنذهب إلى منطقة تمركز فرقتنا .

أخذت ألقى على عجل فى حقيبة سفرى كل ما كانت تصل إليه يداى من أشياء ، وفى الأسفل كان المستشارون العسكريون يتساءلون فى حيرة وذهول وارتباك «ما الذى حدث، هل سنستولى على تل أبيب ، أم ماذا ؟ » .

وصلنا إلى موقع الفرقة الثالثة ميكانيكية مشاة واقتربنا من ملجأ رئيس هيئة الأركان ، حيث كان العقيد نجاتى وقد أيقظه جندى المراسلة من نومه وهو يفرك عينيه وينظر إلينا من أسفل الملجأ بينما أحطنا نحن بالملجأ وقد أمسكنا حقائبنا فى أيدينا.

كان ينظر إلينا مندهشاً وقد عقدت الدهشة لسانه وأخذ العجب منه كل مأخذ . وإتضح لنا أنه لم يكن لديه أى علم أو دراية بحدوث أية إشارة إنذار بالخطر. لاشك أنه كان موقفاً غاية فى السخف . لكن الأمر كله اتضح فيما بعد . فنظراً لتصاعد التوتر واستفحال الموقف وخطورته نتيجة للضربات الصاروخية والضرب المتلاحق بالقنابل ، فقد تم اتخاذ قرار حاسم بضرورة

تواجد المستشارين العسكريين السوفيت وكذلك المترجمين وإقامتهم بصفة دائمة فى مواقع فرقهم ، علاوة على ذلك فقد بات من الضرورى أيضاً تواجدهم معظم الوقت فى الملاجئ . وهذا الذى حدث كان بسبب أنه لم يتم مسبقاً إحاطة العقيد نجاتى علماً بهذا الأمر .

وهكذا أصبحنا جميعاً نعيش فى مواقع الفرقة . لم تتسع الأماكن فى الملجأ كى أقيم مع المستشارين السوفييت، لذا فقد أقمت فى خيمة كبيرة من المشمع مع السائقين المصريين الذين كانوا يقومون بنقل المستشارين . وكانوا أخبرونى قبل ذلك أن هذه الخيمة تحترق خلال خمس ثوانى فقط فى حالة ما إذا ألقيت قنابل النابالم عليها ، لذا فقد كنت أشغل سريراً بالقرب من مدخل الخيمة حتى أتمكن فى حالة إلقاء قنابل النابالم عليها من الإسراع بالخروج منها وعدم الاحتراق بداخلها .

بعد فترة قصيرة عاد ستوبين من أجازته وتم إيجاد مكان لى فى الملجأ . هذا على الرغم من أن الملجأ لم يكن ليحمينا فى حالة الضرب المباشر سواء بالقنابل أم بالصواريخ .

فى ظروف المعركة يتصرف الناس عادة بأسلوب مختلف عما هو معتاد . وطبعاً المترجمون لا يشكلون استثناء عن هذه القاعدة . فعلى سبيل المثال أثناء قصف الفرق المتواجدة بالمنطقة العسكرية المركزية بالقنابل مرض بعض الزملاء فجأة أو بمعنى أصح تمارضوا وتظاهروا بالمرض ، أما البعض الآخر فتظاهروا بأن وجودهم ضرورى جداً فى أماكن أخرى

بعيدة اختاروها بأنفسهم كى تكون أكثر أمناً وأماناً .

يحضرنى هنا على سبيل المثال أن أحد المترجمين الشبان الذى كان يعمل فى الفرقة الثامنة عشر مشاة ـ وكان والده عميداً فى هيئة أركان الحرب السوفيتية ـ تم نقله على وجه السرعة إلى منطقة جبل المقطم ، حيث كانت توجد فى أعماقه حينئذ هيئة الأركان لقوات الصواريخ المضادة للطائرات . كان مفهوماً لنا أن باقى المترجمين لم يكن آبائهم من ذوى المناصب الهامة مثل هذا الشاب ، كان من البديهى أيضاً استحالة نقل الجميع بعيداً عن ميدان المعركة لتأمين سلامتهم . ولهذا السبب فقد استمر باقى المترجمين فى مزاولة عملهم فى نفس أماكنهم .

لقد جلبت حرب الاستنزاف التى كان الهدف من شنها إنهاك إسرائيل وإضعافها أضراراً على الجانب المصرى أيضا . حيث ألحقت بمصر خسائر فادحة ، وبلغت الخسائر والأضرار المادية والمعنوية التى سببتها غارات طائرات الفانتوم الإسرائيلية على مصر حداً كبيراً هائلاً فاق كل تصور . وسقطت أعداد كبيرة من الضحايا سواء من جانب المواطنين العاديين أم من جانب العسكريين . ولا زلت أتذكر حتى الآن ذلك التلاعب اللفظى الحزين الذى كان المصريون المحبون لإطلاق النكت والفكاهات ونقد الذات عادة ما يستعملونه فكانوا يقولون : « حاضر يا فانتون » بدلاً من «حاضر يا فندم » .

سقط أثناء حرب الاستنزاف عدد من القتلى والجرحى من الجانب السوفيتى كذلك . لقد كان الوضع أكثر صعوبة

وتعقيداً على وجه الخصوص بالنسبة لزملائنا من الفرقة السادسة الميكانيكية بالمنطقة العسكرية المركزية التى كانت تربط دهشور بالقرب من أهرامات الجيزة الشهيرة . فقد كان نتيجة للقصف الجوى الذى قامت به طائرتان إسرائيليتان على مركز قيادة هذه الفرقة أن استشهد ثلاثة من الخبراء العسكريين السوفييت ورئيس المترجمين بالفرقة المستعرب محمود يوسوبوف جارى بنفس الطابق بالمبنى الرابع بمدينة نصر. لقد كنت أعرفه حق المعرفة فقد كان شاباً مكتنز البدن ، جميل الطلعة ، بشوش الوجه ، صبوحاً ، له شارب حالك السواد وهو من مدينة باكو . وكان الابن الأكبر لعائلة كبيرة العدد مكونة من ثمانية أفراد يعد هو عائلها الوحيد .

روى لى مترجم اللغة الإنجليزية بهذه الفرقة فيما بعد ما حدث فى ذلك اليوم المشئوم . وكان هذا المترجم قد أصيب بجرح نافذ فى الرئة نتيجة لهذا القصف .

الذى حدث – حسب ما رواه لى المترجم ـ أنه فى الصباح وأثناء اجتماعهم بمركز قيادة الفرقة سمعوا فجأة صوت إطلاق نار من مدافع رشاشة . كان يقوم بإطلاق النار اثنان من المصريين المتواجدين على سطح أحد المبانى المكون من طابقين . اندفع الجميع إلى الخارج ، وفى التو أخذت صواريخ طائرات الفانتوم الإسرائيلية تتساقط من حولهم محدثة انفجارات شديدة . وكنا قد أصبحنا فى هذه الأيام بالذات – كما ذكرت ذلك آنفاً ـ نعيش فى موقع كتيبتنا ونعمل وننظم اجتماعاتنا فى الملاجئ .

ولا يزال يرن فى أذنى ذلك اللحن الجنائزى الحزين لشوبان الذى كان يصاحب مراسم وداع الخبراء العسكريين السوفييت الذين استشهدوا أثناء قصف طائرات الفانتوم الإسرائيلية . تمت تلك المراسم فى النادى العسكرى الخاص بنادى هليوبوليس . كان النادى يقع بجوار أحد القصور المهجورة الذى كان يخص فيما مضى بارون نمساوى . وهذا القصر مبنى على الطراز القوطى يكتنفه السكون والظلمة الحالكة من كل جوانبه، لذا فهم يطلقون عليه اسم « القصر الميت » . ولا يزال بكاء و نحيب زوجات الخبراء العسكريين السوفييت الشهداء الذى يُدمى القلوب يرن أيضاً فى أذنى . لقد كان الجو المحيط بنا غاية فى الصعوبة ، وتمت الترجمة للجنرالات والضباط المصريين المتواجدين فى حفل التأبين بمشقة بالغة . ومن هنا أرسلنا الخبراء العسكريين السوفييت الشهداء فى توابيت من الزنك إلى مثواهم الأخير فى موسكو .

وحتى الآن عند مرورى من أمام مبنى النادى العسكرى السوفيتى السابق رقم 12 بشارع العروبة فى طريقى إلى مطار القاهرة الدولى لازلت أتذكر تلك الصور الحزينة القاتمة التى عشتها فى هذا المبنى فى زمن الحرب .

لم تنج فرقتنا ولا الفرقة الثامنة عشر مشاة المجاورة لنا من قصف طائرات الفانتوم الإسرائيلية المتواصل ، لكن عدد الخسائر فى الأرواح - بالرغم من ذلك كان - ضئيلاً جداً يكاد لا يذكر. فبالنسبة لنا فقد تم توجيه ضربتهم إلى أركان حرب اللواء الرابع

عشر الذى كان يقع فى مركز الهايكستب حيث كانت هذه المنطقة تزدحم بالمساكن . ربما كان هذا هو السبب فى اختلاط الأمر على الإسرائيليين ، فظنوا أن الأركان حرب هو مركز قيادة الفرقة الذى كان يقع على بعد نصف كيلو متر تقريباً من مكان القصف بالقنابل . لقد ساعدنا الحظ فى ذلك كثيراً لأنه فى تلك اللحظة كان يجرى اجتماع مركز قيادة الفرقة ضم قيادة ومستشارى الفرقة الثالثة الميكانيكية ، وكما قال قائد الفرقة العميد/ حجازى : « فإن الله قد حمانا ».
كان واضحاً أن الروح المعنوية غدت منخفضة بعض الشئ ، إذ بدا المستقبل قاتماً مظلماً .

استمر الحال هكذا إلى حين وصول الفرقة السوفيتية الثامنة عشر دفاع جوى للمهمات الخاصة ، التى بوجودها استطعنا أخيراً أن نتنفس الصعداء . ومما هو جدير بالذكر أن القوات السوفيتية النظامية قد حضرت إلى مصر فى أوائل عام 1970 بناءعلى طلب خاص من الرئيس جمال عبد الناصر .

كم أشكر الظروف والأقدار التى جعلتنى أعمل فى مصر تحت إمرة فيكتور ستوبين لقد كان يتمتع بإرادة قوية ، كما كان إنساناً عادلاً يهتم بشئون مرؤوسيه وبالأخص ممن هم فى مرحلة الشباب ، كان شجاعاً جسوراً ، حازماً ، حكيماً يتمتع بقدر كبير من الخبرة الحياتية واللباقة وأدب السلوك الفطرى . لقد كان يمتلك تلك الصفات والخصائص التى كانت ضرورية ولازمة فى ذلك الوقت .

طلب ستوبين من المصريين منذ بداية عمله معهم ألا يطلقوا عليه لقب « مستر» كما كان ذلك معتاداً ، وطلب منهم أن يتوجهوا إليه باسم « الرفيق فيكتور» .

كان من بين فضائله أنه كان لا يحب أن يقوم أحد الرؤساء الكبار بمعاقبة مرؤوسيه الذين يعملون تحت إمرته ، وكان دائماً ما يقول : « مادام هذا الخطأ قد حدث فى دائرة اختصاصى فمعنى ذلك أننى أيضاً قد أخطأت فى شئ ما ، ويجب على أن أقوم بنفسى بمعاقبة المخطئ ». كان هذا هو مبدؤه الذى لا يحيد عنه .

كان فيكتور ستوبين مستشاراً عسكرياً شديد الحماس ، بالغ النشاط ، كثير الحركة لا يهدأ و لا يعطى فترة راحة لأحد سواء لقائد الفرقة أو لضباط الفرقة أو للمستشارين أوحتى لى أنا شخصياً. كان يحاول دائماً أن يتعمق فى جوهر المسائل ويدرك ويستقصى كنة الأشياء ويلم بمضمونها باذلاً أقصى ما فى وسعه كى يقوم بعمله على أكمل وجه ، وفق ما يمليه عليه ضميره ، وكان يطلب ذلك أيضاً من المصريين والمستشارين العسكريين ، كان دائماً ما يتفقد أحوال الفرقة ويذهب إلى القادة والجنود ويطمئن على أمورهم والكتائب حيث كان يساعد ويسدى النصح والإرشاد معتمداً فى ذلك على خبرته الحياتية الواسعة ، كان يعرف جميع قادة الكتائب وكذلك قادة بعض السرايا السوفيتى .

ليس من قبيل الصدفة أن قال عنه قائد الفرقة المصرى حجازى:

« إن الرفيق فيكتور يتعامل مع الفرقة وكأنها إحدى الفرق السوفيتية التى كان يرأسها فى الاتحاد السوفيتى » . وهكذا يمكن الإشارة إلى أن عمل كل المستشارين العسكريين السوفييت تقريباً قد سار على نفس هذا المنوال .

وسأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر واقعة حدثت تدل دلالة قاطعة على علاقة فيكتور ستوبين القوية و ارتباطه العميق بالعمل . ففى إحدى المرات أثناء التدريبات العسكرية كان هناك تدريب على إطلاق النار على أهداف معينة، لاحظ ستوبين أن هناك جندى مشاة واحد فقط من بين مجموعة المتدربين على ضرب النار هو الذى يطلق النيران . عندئذٍ صاح بى قائلاً : « جينا، هيا بنا إلى الأمام » . وأخذ يزحف مقترباً من خط النار .

وعندما صرنا على مقربة من هذا الجندى الذى أخذ يطلق النار بدون توقف عليه فاستدار نحونا بوجهه الغاضب الذى غطاه التراب الأبيض و اتضح لنا أنه النقيب قائد السرية الميكانيكية، وأنه قد قام بجمع الذخائر المعطاة لاستعمال أعضاء السرية فى التدريب على الرماية و استخدامها هو وحده حتى يبين أن جنود سريته على درجة عالية من الكفاءة . أعتقد أنه من المستبعد أن يقوم أحد الضباط المصريين أو أى مستشار عسكرى سوفيتى آخر بذلك ، أو حتى أن تخطر بباله فكرة الزحف و الاقتراب من خط إطلاق النار . لكن ستوبين هو ستوبين ولا أحد غيره يمكنه أن يفعل ذلك .

على وجه العموم فقد كان ستوبين يقيم علاقات جيدة جداً مع

كل ضباط الفرقة بينما كان يشعر حيال بعضهم بالود، مثل تلك العلاقة التى كانت تربطه بالضابط مرشد قائد إحدى كتائب اللواء مشاة ميكانيكية الرابعة عشر. فقد كان يسبق كل حديث له مع الضباط بسؤاله بلغته العربية الركيكة: «إزيك؟ وإزى صحتك؟» لكنها بالنسبة لمرشد وغيره من المصريين كانت مفهومة. دأب ستوبين على بذل كل ما فى وسعه كى يزيد بصورة مستمرة من حصيلته اللغوية من الكلمات العربية.

كان ستوبين موضع حب وإعجاب وتقدير الضابط مرشد والكثيرين غيره من الضباط المصريين الآخرين، نظراً لبساطته الشديدة وبعده عن الترفع والعجرفة وخلقه الحسن الطيب، علاوة على ذلك فقد كان إنساناً اجتماعياً ودوداً يحب التعرف على الناس ومصادقتهم. ويحضرنى هنا تلك الواقعة التى حدثت أثناء احتفالنا مع المصريين بعيد الأضحى الذى يأتى عادة بعد عيد الفطر بشهرين وعشرة أيام، فقد اجتمعنا عند مرشد فى الكتيبة حيث كان هناك قائد الفرقة حجازى، ورئيس أركان حرب الكتيبة نجاتى، ورئيس العمليات الكسار وغيرهم من قادة الفرقة ولواءاتها.

أخذ الجميع يلتهمون ما أُعد من طعام للعيد من لحم وأرز بفرح وابتهاج وسط الأحاديث الحارة والنكات التى لا تنقطع. وبسبب الترجمة التى كنت أقوم بها أثناء تناول الطعام لم أتمكن من تناول سوى كمية قليلة جداً من اللحم والأرز، لذلك فقد اضطررت للبقاء لفترة قصيرة من الوقت جالساً إلى

المائدة بعد انصراف قادة الفرقة والمستشارين ، تحوطنى النظرات النهمة الجائعة والغير مرحبة على وجه الإطلاق لضباط كتيبة مرشد الذين كانوا ينتظرون دورهم فى الجلوس إلى مائدة الطعام بعد فراغنا من الطعام .. لكننا - وبالتحديد أنا - لم أكن قد بدأت حتى الآن .. فلينتظروا حتى أفرغ من طعامى . لم يكن ستوبين فقط مستشاراً عسكرياً ، اجتماعياً ، خبيراً بأمور الحياة ، حكيماً ودبلوماسياً فى تعاملاته مع الآخرين ، بل أن الأهم من كل ذلك بالنسبة لى ،على سبيل المثال ، هو أنه كان إنساناً كثير العناية والاهتمام بالآخرين وقوى الملاحظة ويمكن تلخيص كل ذلك فى كلمة واحدة ، هو أنه كان خير مُعلم وأفضل مرشد ومرب . كان ذلك على جانب كبير من الأهمية ، خصوصاً فى تلك الظروف المعقدة ، البالغة الصعوبة ، والتى لم تخل فى أحيان كثيرة من الخطورة .

سمعنى ستوبين ذات مرة وأنا أنادى على أحد زملائى فأخذ يطلق علىّ « الشيخ » ، وأحياناً كان يتوجه إلىّ بالحديث قائلاً لى : « يا ابنى » . فكثيراً ما كان يقول لى وللآخرين : « اسمع يا ابنى » . كان يردد الوصايا العشر من الإنجيل بطريقته الخاصة فيقول لنا : « لقد علمنى والدى منذ الصغر ألا أسرق أموال الحكومة وأن أحترم أبى وأمى وألا أخون أصدقائى ، أما الباقون فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم ... » . لقد كان يجيد إستعمال الكثير من الألفاظ والتعبيرات السوقية الدارجة ، ومع ذلك فقد كان يتمتع بعالم داخلى واسع ، رحب ، وذوق وسلوك مثاليين واهتمام متميز بالمحيطين به.

فقد كان كثيراً ما يسألنى إذا ما كنت أتسلم خطابات من أسرتى ، وماذا يكتب لى والدى ، وما هى الأماكن التى أرتادها فى القاهرة ، ومع من أتقابل.... ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التى لم تكن تخفى وراءها مجرد اهتمام زائد ، بل اشتراك حقيقى فى إدراك مستقبل إنسان وضعته الظروف والأقدار تحت رعايته وإشرافه .

كانت مثل هذه العلاقة الوطيدة ، الحميمة ، لازمة وضرورية لى ولزملائى وأقرانى الذين تم استدعاؤهم للخدمة فى الجيش السوفيتى بعد انتهائهم مباشرة من دراستهم الجامعية ، فابتعدوا فجأة عن الأهل والوطن ، ولكنهم ذهبوا إلى وطنهم الحبيب الثانى . وكنت قبل ذلك - كما ذكرت آنفاً - قد قضيت فى مصر عاماً بأكمله فى دورة تدريبية ، حيث استمتعت بكل ما فى هذا البلد من مباهج وإغراءات . وقد تم اختيارى حينئذ كى أكون رئيساً لمجموعة من الطلبة المتدربين الوافدين إلى مصر التى كانت تضمنى وتضم ستة طلاب غيرى من معهد اللغات الشرقية بموسكو ، وثمانية طلاب من جامعة طشقند .

عندما كنت أذهب إلى السيد/يميليانوف المستشار الثقافى بالسفارة السوفيتية فى القاهرة لإفادته عن أحوال الطلبة السوفيت الوافدين ومشاكلهم كان ينظر إلىّ من أعلى نظارته ولسان حاله يقول : « لماذا حضرت ؟.... ألا ترى أننى مشغول جداً ، ولدى أعمال كثيرة يجب علىّ أن أنجزها؟ . هيا اذهب لتتنزه». وبالفعل فقد كنا نتفسح ونتجول كثيراً . لأن الحياة فى

المدينة الجامعية بجامعة القاهرة كانت صعبة ، ذلك لأن أبواب مبنى المدينة الجامعية كانت تغلق فى وقت مبكر جداً - فى الساعة الثامنة مساء - ومن يتأخر عن هذا الموعد كانت تقدم عنه تقارير كتابية .

ما عدا ذلك ، فقد كانت كل الأمور محتملة ، حيث أننى قد عشت قبل ذلك فى مساكن الطلبة التابعة لجامعة موسكو الحكومية لمدة أربع سنوات كاملة ، لهذا السبب فقد قمنا باستئجار شقة بحى العجوزة خلف السيرك القومى ومسرح البالون مباشرة ، وتطل على النيل . كنا ندعو لزيارتنا من نشاء وفى أى وقت نشاء ، فكان من بين زوارنا كُتّاباً وصحفيين ومؤرخين و غيرهم كثيرين . كما أقمنا علاقات طيبة جداً مع كثير من المصريين الذين لا زالت تربطنى بهم صداقة وطيدة حتى الآن .

وقد حكيت لستوبين الكثير من هذه الذكريات مضيفاً أننى لازلت حتى الآن وأنا أعمل كمترجم بالفرقة الثالثة مشاة ميكانيكية أواصل اللقاءات مع الكثير من أصدقائى ومعارفى المصريين القدامى ، لأن نسيان الأصدقاء أو خيانتهم وفقاً لوصية أبى خطيئة لا تغتفر .

بالطبع لم أكن لأقص على ستوبين كل شئ . وبصورة عملية فقد كنت أزور معارفى المصريين القدامى كل أسبوع . كنت أستقل الأتوبيس مساء كل يوم خميس بعد الانتهاء من عملى فى مدينة نصر -متوجهاً إلى الزمالك .

فى ذلك الوقت كان يعيش بمدينة نصر الخبراء السوفييت فى مجال الطاقة من العاملين بالسد العالى ، كما كانت توجد صالة بلياردو رائعة ، كما كانوا يلعبون الفولى بول خلف أسوارها .

بعد وصول قواتنا النظامية تم تسكين الأطباء العسكريين السوفييت فى هذه المنطقة حتى يكونوا بالقرب من المستشفى العسكرى الميدانى السوفيتى الواقع بمنشية البكرى .

لقد توصلت أخيراً إلى فهم معنى أن يقع الإنسان فى أيدى طيبة أمينة مثل أيدى ستوبين ، وذلك عندما ذهبت معه ومع رئيس أركان حرب الفرقة نجاتى فى مهمة تفتيشية على اللواء العاشر فى منطقة البحر الأحمر ، حيث توجهنا إلى هناك فى عربة جيب مع السائق أحمد .

كان الإسرائيليون هناك يقومون بأعمال تخريبية منذ فترة طويلة ، حيث كانوا يقومون بعمليات إغارة وزرع ألغام بالطرق ، وفى آخر الأمر سرقوا راداراً حديث الصنع كان متواجداً فى إحدى كتائب اللواء العاشر مشاة ميكانيكية بمنطقة جمصه . وقد تمت معاقبة كل من المستشار العسكرى تاراس بانتشينكو والمترجم إيجور كوليكوف و توقيع جزاء رادع عليهما ، وكنت أعتبرهما من أصدقائى المقربين إلىّ . كان إيجور كوليكوف حينئذ لا يزال طالباً بالمعهد العسكرى للغات الأجنبية .

سافرنا بالنهار ، لهذا فقد كان الطريق إلى البحر الأحمر بالنسبة لنا سهلاً وممهداً . حين وصلنا إلى الغردقة أقمنا هناك فى الفندق

الدائرى ، وهو الفندق الوحيد الذى كان موجوداً بالغردقة فى ذلك الوقت .

كان يفصلنا عن الإسرائيليين حينئذ شريط مائى فقط ، حيث أنهم فى ذلك الوقت كانوا قد استولوا على جزيرة شدوان التى تقع فى مواجهة الغردقة . حكى لى ستوبين فيما بعد عن حالتى أثناء هذه المأمورية فقال لى أننى ما إن كنت أذهب إلى الفراش فى نهاية اليوم حتى أتنفس الصعداء قائلاً : (( آه يا أمى )) . ثم أروح فى التو واللحظة فى سبات عميق . من الواضح أننى كنت مفعماً بشتى المشاعر والأحاسيس والانطباعات .

ما إن أنهينا التفتيش على اللواء العاشر حتى تأهبنا للعودة لأدراجنا فى المساء . انتظرنا وصول العربة المدرعة التى وعدونا فى اللواء بإعطائها لنا لمرافقتنا ، لكنها لم تصل .

يتكون الطريق إلى مدينة قنا من ثلاثة أجزاء : الجزء الأول ساحلى بحرى ، وهو طريق مستوى يمتد حوالى 20 كيلو متر ، ثم بعد ذلك طريق آخر يمتد عبر صخور رأسية صغيرة داكنة اللون ، وأخيراً يمر الطريق خلال أرض منبسطة حتى مدينة قنا .

كان أخطر جزء من الطريق هو الجزء الجبلى . فهناك بالتحديد قام الإسرائيليون قبل سفرنا بتلغيم هذا الجزء بالذات من الطريق بألغام وثابة . وهى عادة ما تنفجر مندفعة إلى ارتفاع غير كبير لتحقيق أفضل النتائج فى إصابة قوات العدو الحية .

قبل أن نتوجه فى طريقنا ، قرر العقيد/ نجاتى أن يجرب مدى

صلاحية المدفع الرشاش الذى كان يحمله معه السائق أحمد ، وهو صناعة مصرية ماركة ((بورسعيد)) ، فوجد أن ترباس المدفع قد علاه الصدأ بحيث لا يمكن سحبه أو تحريكه ، وباختصار فقد كان المدفع الرشاش فى حالة سيئة و غير صالح للاستعمال. استشاط العقيد/ نجاتى غضباً خصوصاً أن ذلك حدث أثناء تواجد السوفييت وفى حضورهم فاستخدم سلطته وعاقب أحمد بالحبس لمدة 15 يوم . ولكن هل كان فى إمكانية هذا المدفع الرشاش من ماركة ((بورسعيد )) - حتى لو كان يعمل - أن ينقذ أرواحنا؟ . أود أن أذكر هنا - سابقاً الأحداث - أنه عندما عدنا أدراجنا إلى الهايكستب ، كان أحمد يقضى مدة سجنه المقررة .

بدأنا التحرك عائدين أدراجنا مستخدمين إضاءة ضعيفة، فكنا نرى الطريق أمامنا بالكاد ، فالظلام كان دامساً وقد بلغ بنا التوتر أقصاه . كنا ننظر إلى الطريق الممتد أمامنا وقد بدا وكأنه لا نهاية له ، وقد اعترانا الخوف وأخذت منا الرهبة كل مأخذ .

قطعنا على هذا النحو عشرات الكيلو مترات ، وفجأة تراءت لنا على البعد بعض الأنوار الخافتة ، فإذا بنا - وقد علت وجوهنا الفرحة - نحث السير فى اتجاه هذه الأنوار لنجد على اليمين معالم المطار الذى يجرى بناؤه فى قنا ، فتبدل توترنا وخوفنا ورهبتنا وتنفسنا الصعداء .

قمنا على وجه السرعة بنقل الفرقة فى قنا ، فجزء منها تم نقله عن طريق السكة الحديدية والجزء الآخر - بالعربات المدرعة واللوريات .

تركنا هناك الميكروباص الأزرق اللون الذى كنا نستعمله فى التنقل من مدينة نصر إلى الهايكستب ثم العودة . بدأت فى قنا ترتفع درجة الحرارة . تم بالتدريج تسكين الفرقة ونشرها فى مخابئ بالصحراء .

فى كل يوم كانت تحدث بين أفراد الفرقة من 20 إلى 30 لدغة من العقارب التى كانت تعج بهم تلك المنطقة . وعملياً فتحت كل حجر تقريباً حيث كان يجلس الجندى كان يوجد هناك عقرب . وقد قمنا بتأمين أنفسنا من لدغ هذه العقارب فى الملجأ الذى تم تخصيصه لإقامتنا بأن ربطنا علب مملوءة بالكيروسين حول أرجل الأسرة التى كنا ننام عليها . كان الجو فى الملجأ حاراً خانقاً ، وعلاوة على ذلك ، كانت هناك الأبخرة المتصاعدة من الكيروسين المنتشرة فى المكان كله .

كان العمل كثيراً وكان الرفيق فيكتور كعادته دائماً متخماً بالعمل ، فقد كنا كل يوم نتفقد كل المواقع تقريباً التى تنتشر فيها الفرقة . ثم بدأت التدريبات . كان هذا يعنى أننا لابد وأن نتابع بعربة الجيب تحركات الدبابات والمدرعات والجنود .

كان الجو فى الصحراء الواقعة بالقرب من قنا خانقاً للغاية وقد صبغته باللون الأبيض الأتربة المتصاعدة من الأحجار البيضاء والزلط الذى كان يتكسر ويتهشم أثناء سير الدبابات والعربات عليه . كان التراب والرمل يملآن حلقى بصورة دائمة بينما ارتفعت درجة حرارة الجو إلى درجة يصعب احتمالها حيث كنا على مسافة حوالى ألف كيلو متر جنوب القاهرة .

لذا فقد كان علينا أن نحمل معنا جيركن ملئ بالماء بصفة دائمة لعل جرعات المياه منه تمد فى أعمارنا وتمنحنا الحياة .

كما ذكرنا من قبل فقد كنا نجلس مع المصريين على مائدة طعام واحدة مشتركة .

لم نكن نتناول أى من أنواع الشوربة تقريباً ، بل كانوا يقدمون لنا على الغداء لحم مع البطاطس أو الأرز أو حمام محشى، ففى مصر عدد الحمام كبير وأبراج تربية الحمام تعد جزءاً رئيسياً من منظر الريف . لكن الطامة الكبرى أننى لم أكن أستطيع أكل الحمام حيث أننى لم أتعود على ذلك فى بلدى . فكنت أتناول عدة لقيمات فقط كى أسد بها رمقى. أضف إلى ذلك أننى فقدت شهيتى للطعام فى مثل هذا التراب والجو الحار وكنت أدخن وأشرب الشاى بصفة دائمة ، لذلك فقد فقدت الكثير من وزنى لدرجة أننى أصبحت أبدو كالمومياء أو كما يقولون فى مصر « كخيال المآته » .

استمر الحال على هذا المنوال عدة أشهر . وأخيراً حانت لحظة الخلاص من هذا الكابوس المخيف على يد صديقى إيجور الذى كنت أدرس معه فى دفعة واحدة .

ففى صباح أحد الأيام فوجئت بفيكتور ستوبين وهو يوقظنى من نومى قائلاً لى : « انهض حالاً فهناك بأعلى المكان ينتظرك صديقك » . نهضت بسرعة وأخذت أصعد الدرج إلى أعلى الملجأ حيث كان يقف إيجور . ولم أدر حينئذ السبب فى ارتدائه بالطو

طويل جداً مثل البلاطى التى يرتديها عادة العسكريون . وبعد أن تعانقنا قال لى إيجور : « فلنجلس الآن ونتحدث فهناك أشياء كثيرة أريد التحدث معك عنها وياحبذا لو كانت لديك بيرة » . لكن للأسف البيرة كان يمكن أن تجدها فقط فى قنا . وبالرغم من عدم وجود البيرة إلا أنه قد دار بيننا حديث طويل ممتد ذو شجون .

وحرى أن أذكر هنا أنه من بين مجموعتين من دارسى اللغة العربية تتألفان من ثمانية عشر فرداً قد وقع الاختيار علينا أنا وإيجور فقط لاستدعائنا للخدمة العسكرية فى الجيش السوفيتى . أما الباقون فمنهم من حصل على وظائف بوزارة الخارجية السوفيتية ومنهم من التحق بالدرسات العليا بالجامعة، أى أن كل خريج منهم التحق بعمل ما ، ولم يتم استدعاء أحد للجيش سوانا نحن الاثنين . وقد رشحتنى الإدارة الرئيسية للكوادر بوزارة دفاع الاتحاد السوفيتى للسفر للخارج . والحقيقة أن العاملين بالإدارة حاولوا إقناعى لمدة أربعة أيام على التوالى بالسفر أولاً إلى الجزائر . لقد درست فى مجموعة دراستى اللغتين العربية والفرنسية . وفى نفس الوقت كما ترى فقد فاجئنا كبير المستشارين السوفييت فى الجزائر بأن طلب للعمل معه هناك مترجماً للغتين العربية والفرنسية .

على مدى أربعة أيام متتالية وأنا أبذل قصارى جهدى كى لا أسافر إلى الجزائر وطلبت بدلاً من ذلك إرسالى إلى مصر . لذا فقد أصبحوا ينظرون إلى طلبى هذا بعين الشك والريبة : لماذا يرفض بشدة السفر إلى بلد كالجزائر يقع على شاطئ البحر المتوسط،

حيث الأوضاع هناك آمنة ومستقرة ، بينما يلح فى السفر إلى مصر حيث تدور المعارك العسكرية على أشدها ؟ .

فى ذلك الوقت كان الهرب إلى خارج الاتحاد السوفيتى أمراً شائعاً ، وأذكر أنه خلال فترة تدريبنا بجامعة القاهرة هرب اثنان من الدارسين معنا بنفس الصف الدراسى ، أحدهما توجه إلى باكستان والآخر توجه إلى فرنسا ( وقد بعث الطالب الأخير برسالة من باريس إلى مدير معهد اللغات الشرقية بموسكو السيد/ كوفاليوف يطلب فيها إرسال شهادة تفيد إنهائه أربع سنوات دراسية بالمعهد ) . وعندما وصلنا نبأ هروب زميلينا و نحن فى القاهرة أصابنا ذعر شديد وتوقعنا أن يتم ترحيلنا من القاهرة إلى موسكو حتماً ومن كل بد.

وعندما حصل إيجور على رتبة ملازم تم تعيينه بمعهد إعداد المترجمين العسكريين للعمل به كمدرس للغة العربية ، ولكن مع بداية عام 1970 تم إلحاقه للعمل كمترجم ضمن مجموعة المشتركين فى العملية الحربية بمصر ، وقد كان كودها « عملية القوقاز » ، كما كان مخططاً أن يعمل مترجماً بمركز الإشارة وبالمستشفى العسكرى .

سافر إيجور عن طريق البحر ، حيث أن معظم المشتركين فى العملية الحربية « القوقاز » حضروا إلى مصر عن طريق البحر، وتعرف على ظهر السفينة بصفة مباشرة بالعاملين بمركز الإشارة والمستشفى العسكرى السوفيتى .

كانت هذه هى المرة الثانية التى يحضر فيها إيجور إلى

مصر . فقبل ذلك حضر إلى مصر وهو لا يزال بعد طالباً للعمل كمترجم عسكرى . لذا فقد كان يعرف مصر جيداً ويعرف عاصمتها بصورة أفضل . وبعد حضور مجموعة ضباط مركز الإشارة بصحبة إيجور بعدة أيام قادهم فى جولة ليتعرفوا على أهم معالم مدينة القاهرة السياحية حيث زاروا أهرامات الجيزة وغيرها من الأماكن التاريخية والأثرية .

قضى الشبان أوقاتاً مرحة بصورة زادت عن الحد المفروض مما أدى إلى مخالفتهم لقواعد الانضباط الخاصة بتواجدهم بمصر، خصوصاً وأن تواجدهم بها كان مرتبطاً بمهمة عسكرية سرية . باختصار فقد تم ترحيل المسئولين عن هذه المجموعة من ذوى الرتب الكبيرة إلى الاتحاد السوفيتى فى ظرف 24 ساعة ، أما باقى ضباط الإشارة فقد تمت أيضاً معاقبتهم ، حيث تم نفى إيجور « المرشد السياحى » للمجموعة إلى مدينة قنا ، حيث كانوا عادة ينفون إلى هناك أيام حكم الملوك المصريين المغضوب عليهم وغير المرغوب فى تواجدهم فى العاصمة .

كان يتعين علىّ وفقاً للتعليمات أن أحل مكان إيجور بموقع عمله بمركز الإشارة والمستشفى العسكرىالسوفيتى بمنشية البكرى . تغيرت طبيعة العمل فى موقعى الجديد هذا إلى حد كبير . فالآن أصبح معظم المحيطين بى من الضباط والجنود السوفييت وأصبحت أعيش كما كنت أعيش من قبل فى مدينة نصر 4.

كنت أتناول طعامى فى مطعم ضباط مركز الإشارة حيث

تقدم تلك الأطعمة المألوفة بالنسبة لنا مثل شوربة البورش ، وخبز القمح الأسمر ، والدجاج ، وعصيدة الحنطة السوداء ، والزبد وغير ذلك من حصص الطعام الأخرى الإضافية . وقد تسبب هذا النوع من التغذية فى أننى أصبحت فى موقف صعب لا أحسد عليه . إذ أننى أصبت بانسداد جزئى فى الأمعاء بسبب كثرة الطعام وبسبب بعض الآثار الجانبية لعملية جراحية أجريت لى فى موسكو فى عام 1965 ، مما أدى إلى انسداد الأمعاء كلية. تم نقلى إلى مستشفى سوفيتى ميدانى عسكرى كان يقع هناك فى منشية البكرى حيث أجريت لى عملية جراحية عاجلة.

وقد قام بإجراء العملية الجراحية لى الطبيب الجراح بهاء الدينوف الذى تقابلت معه مرة ثانية بعد مرور 25 عاماً إلى مصر ضمن وفد يضم المحاربين القدماء السوفييت فى عام 1996 . وكان قد قال لى حينئذ بعد إجراء العملية أنه إذا كان قد حدث ذلك الأمر فى قنا ، فإن النتيجة كانت ستكون غير حميدة بالمرة . إذن لقد أنقذنى صديقى إيجور من أسوأ ما كان من الممكن أن يحدث لى وذلك بنقله إلى قنا كى يحل مكانى هناك .

لازلت أذكر عملى بمركز الإشارة بكل مشاعر الحب والاعتزاز . فقد كان عملاً فريداً فى نوعه . وكان يتحتم علىّ أن أتحدث كثيراً جداً مع المصريين بالتليفون .

كان الرمز الكودى لمركز الإشارة السوفيتى هو الكلمة الروسية « اموليت » التى تعنى بالعربية « تميمة » أو « تعويذة »، وهى تنطق مشابهة لكلمة «عمليات » باللغة العربية ،

وكلمة عمليات هى اختصار لتسمية إدارة العمليات بهيئة أركان الحرب العامة للقوات المسلحة المصرية . وهكذا أصبح المصريون يطلقون على السوفييت العاملين بمكتب المستشار العسكرى الرئيسى ـ « امووليت » . كان هذا الخلط بالنسبة لى شيئاً مسلياً وظريفاً ، وكذلك بالنسبة للمصريين .

وكم أود أن أعبر بأصدق الكلمات الطيبة عن زملائى الذين كانوا يتناوبون معى العمل بمركز الإشارة وهم : كوزمين، ولاجوتين ، وكوريوسينكو، وفورونين الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر حضورى إلى العمل . كانوا يقومون بتبليغى عن الأعطال التى تحدث بخط الاتصال ، عندئذ كنت أتصل تليفونياً بعمال الإشارة المصريين كى أبلغهم بالعطل الذى حدث . بعدها يبدأ عمل مرهق وشاق معهم بهدف تحديد مكان قطع خط الاتصال لعمل مركز الإشارة . وكان الجميع يكنون لى كل ود وتقدير واحترام ويطلقون على جينادى فاسيلييفيتش ، وربما كان هذا الاحترام مرجعه إلى أنهم جميعاً كانوا يعلمون أننى خريج جامعة موسكو- وما أدراك ما جامعة موسكو ؟ .

كانت الساحة التى يقع بها مركز الإشارة تكاد تبرق من شدة النظافة ، وكان الضباط والجنرالات المصريون يطلقون على المكان « المكان الشيك » . هنا كانت الظروف والأحوال عادية وطبيعية سواء كانت أحوال الخدمة والعمل أم الأحوال المعيشية .
وبدأت فترة راحة نسبية لاسيما بعد إيقاف غارات العمق التى

كانت تقوم بها طائرات الفانتوم الإسرائيلية : فأصبحنا نقضى أوقات فراغنا فى لعب البلياردو والعزف على الجيتار وغير ذلك من وسائل التسلية والترويح عن النفس من إطلاق للنكات وعمل مقالب مضحكة مع بعضنا البعض ، وارتفعت الروح المعنوية بين الجنود والضباط .

لازلت أذكر بصورة جيدة جداً تلك الزيارة التى قام بها أليكسى نيكولا يوفيتش كوسيجين لمركز الإشارة فى عام 1970. فقد وقفنا نحن الضباط بالقرب من المطعم ، ثم ظهرت الحاشية المرافقة لكوسيجين ، وعلى رأسها كبار الرؤساء والقادة والمسئولين . كان يصاحبهم الملازم ميشا كوفا لينكو نائب رئيس مركز الإشارة للشئون الإدارية. دخل الجميع إلى المطعم.

فجأة وعلى حين غرة انفتح باب المطعم بشدة على مصرعيه واندفع ميشا كوفالينكو من خلاله صائحاً : « يا شباب من منهم كوسيجين ؟ .... انفجر الجميع ضاحكين ووصفوا له على وجه السرعة كيف يبدو كوسيجين .

بدا سؤال ميشا هذا غريباً إذ أن صور أعضاء المكتب السياسى ومن بينهم صورة كوسيجين نفسه كانت معلقة فى كل مكان تقريباً، وكانت هذه الصورة معلقة أيضاً لدينا .

بعد فترة وجيزة خرج كوسيجين مع مرافقيه من المطعم . وخرج أيضاً ميشا مشدوهاً ، مبهوتاً على شفا الجنون من هول وثقل المسئولية الملقاة على عاتقه . عندئذ قال له أحد الضباط ناصحاً

إياه على سبيل الدعابة : « ميشا . كان يجب عليك إهداء أليكسى نيكولايوفيتش كوسيجين بضعة أرغفة كى يأخذها معه أثناء سفره فإنه سيطير اليوم عائداً إلى موسكو» .

ما إن سمع ميشاكوفالينكو ذلك حتى أنطلق إلى داخل المطعم وبعد بضعة ثوانى فقط لا أكثرخرج من المطعم مهرولاً، مندفعاً كالسهم ، حابساً أنفاسه من شدة الخوف من التأخير ، كان يحمل معه عدة أرغفة من الخبز الأبيض ملفوفة فى قطعة من الورق ، وجرى خلف ركن المبنى حيث كان الوفد قد اختفى تماماً عن الأنظار .

لا أدرى ما الذى حدث هناك بالضبط .

ولكن بعد مرور حوالى 15 أو 20 ثانية ظهر ميشا من وراء ركن المبنى منكس الرأس ، مكتئباً ، منقبض النفس ، حاملاً فى يده أرغفة الخبز الأبيض المخصصة من أجل أليكسى نيكولايوفيتش. وهكذا ، طاركوسيجين عائداً إلى موسكو دون أن يأخذ معه فى رحلته أرغفة الخبز التى أعدها له ميشا .

بالإضافة إلى عملى بمركز الإشارة كنت أقوم بأعمال الترجمة فى المستشفى العسكرى السوفيتى الذى كان يقع على بعد مائة متر فقط من منزل الرئيس جمال عبد الناصر .

كان المستشفى العسكرى ومركز الإشارة قد تم إنشاؤهما منذ عهد قريب ، لذا فقد كان العمل على أشده ، وفى نفس الوقت وبصورة متوازية كان يتم بناء وتشييد مشاريع جديدة

تقوم بإنجازها هيئات إنشائية عسكرية مصرية، كما كان يتم نشر وتوزيع المعدات والتجهيزات بكل من مركز الإشارة والمستشفى العسكرية وتشغيلهما .

بدأ تدفق القوات السوفيتية النظامية التى كانت تلتحم على الفور فى المعارك التى كانت تخوضها القوات السوفيتية المتواجدة .

فى أثناء إحدى المعارك الغير متكافئة التى دارت رحاها بين أربعة من الطيارين السوفييت واثنتى عشرة طائرة « ميراج » من طائرات العدو و استشهدمن رجالنا ثلاثة طيارين أما الطيار الرابع فقد قذف نفسه بالمقعد الطائر، وتمكن من الهبوط على الأرض بسلام وكسرت ساقه فى هذه الحادثة .

لن تمحى من ذاكرتى ما حييت تلك الصورة عندما ذهبت بمرافقة مدير المستشفى العسكرى لتوصيل جثث الجنود السوفييت إلى المشرحة بالقاهرة . كان هؤلاء الجنود السوفيت قد احترقوا فى مركز قيادة كتيبة الصورايخ نتيجة السقوط المباشر لأحد الصورايخ الإسرائيلية .

كانوا ثمانية شبان تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة عشر والعشرين ، وكان من بينهم شابان توأمان . كانوا وهم متفحمون يبدون جميعاً كالتوأم . كان الملازم سومين قائد الطاقم هو الوحيد من بينهم الذى لم يحترق، وإنما أصيب بشظايا الصاروخ الإسرائيلى المنفجر .

كان من الواضح أنه لحظة سقوط الصاروخ كان سومين يقف رافعاً يده كى يعطى أوامره بإطلاق صاروخ مضاد ، لكنه استشهد وهو فى هذا الوضع وتجمدت يده الميتة المرفوعة، ولم نتمكن من فردها بأى حال من الأحوال . ووجدنا صعوبة بالغة فى إدخاله فى مكان حفظ الموتى الضيق بالمشرحة ، مما اضطررنا معه فى نهاية الأمر إلى إدخال جثته فى مكان حفظ الموتى مع غلقه وبقاء يده الميتة المتجمدة مرفوعة خارجة منه .

طبقاً لحساباتى وتقديراتى ، يتراوح عدد الجنود والضباط السوفييت الذين استشهدوا أثناء العمليات العسكرية فى مصر خلال عامى1969 ـ1970 ما بين 30 إلى 40 فرداً من الجنود والضباط السوفييت . نصفهم تقريباً كان يعمل بجهاز المستشارين العسكريين ، أما النصف الآخر فكان من أفراد القوات النظامية السوفيتية التى حضرت إلى مصر وفقاً لعملية عسكرية خاصة وضعت خطتها لإيقاف غارات العمق الإسرائيلية كانت تحمل اسماً كودياً « القوقاز » .

كان عمل المترجم متنوعاً إلى حد كبير ولم يكن مقتصراً فقط على أعمال الترجمة وحدها . فلقد كانت هناك أعمال تدخل فى نطاق الترجمة وأعمال أخرى لا تدخل فى نطاقها، لكننى أعتقد أنها كلها متقاربة ولم يكن الفرق بينها كبيراً ، علاوة على ذلك فالمترجم مكلف بأداء أية أعمال أخرى توكل إليه .

لا أتذكر على وجه الدقة إن كانت هذه الواقعة التى سأذكرها

هنا مرتبطة بحضور القائد العام للقوات الجوية السوفيتية المارشال كوتاخوف إلى القاهرة أم بحضور القائد الأعلى لقوات الدفاع الجوى السوفيتى المارشال باتيتسكى .

كانت مباحثات المارشال مع الجانب المصرى معقدة للغاية . بعد الأنتهاء من المباحثات قام المصريون بتنظيم حفل استقبال بنادى الصيد بالهرم . جلس المارشال مقطب الجبين ، عابس الوجه، مكتئباً لدرجة أن الرقص الشرقى الذى كانت تؤديه واحدة من أحسن الراقصات المصريات لم يحسن من مزاجه .

فجأة وعلى حين غرة اقتربت منى الراقصة عندما سمعتنى أتحدث مع الجنرالات المصريين باللغة العربية وأوقفتنى ، ثم راحت تفك رباط عنقى ببطء فى حركات راقصة ، لكنها لم تتمكن من فعل ذلك على وجه السرعة . أدى هذا إلى بعث السرور فى نفوس الضيوف العسكريين الذين كانوا يجلسون حول موائد موضوعة على شكل حرف «ب» فى اللغة الروسية خصوصاً بعد تناولهم الويسكى .

لكن بالرغم من كل ذلك فقد ظل المارشال كسابق عهده مكفهر الوجه ، مكتئباً .

استمر عزف الموسيقى الشرقية فى حين طلبت منى الراقصة أن أشاركها الرقص وهى تهز وسطها . أما أنا فقد وقفت متجمداً فى مكانى من شدة الخجل ومن الموقف المحرج الذى وجدت نفسى فيه فجأة وبلا مقدمات ، رفضت مشاركة الراقصة فى حركاتها.

لم أجد أمامى مخرجاً من هذا الموقف الذى لا يحسد عليه أحد .

حاولت أن أقلد الراقصة فى حركتها متمشياً مع الموسيقى ، بينما أخذت هى تشجعنى با نحناءات من رأسها وأخذت فى زيادة سرعة الرقص . حاولت جاهداً أن أؤدى حركات الرقص الشرقى بمصاحبة تصفيق الحاضرين . استمرت حركات الرقص هذه لعدة دقائق خيل إلى أنها دهراً بأكمله .

انفجر الجنرالات المصريون والسوفييت من الضحك، بينما انفرجت أخيراً أسارير المارشال السوفيتى ، وبدا وكأننى قد قمت بمهمتى فى الترويح على الجنرال بمعاونة الراقصة على أكمل وجه .

فى أحيان كثيرة كنا نقوم بالترجمة التحريرية . كما قلت مسبقاً فقد كان يوجد مكتب للترجمة فى الإدارة التابعة لكبير المستشارين السوفييت التى كان يرأسها بعد وصولى مباشرة إلى مصر المقدم السوفيتى جيورجى ريئوتسكى من مدينة أوديسا .

بعد مرور فترة زمنية أصبح العقيد/ كفاسوك من موسكو كبيراً للمترجمين . لا أعرف السبب فى أن معظم المترجمين السوفييت الذين كانوا يعملون فى مكتب الترجمة كانوا من مترجمى اللغة الإنجليزية . كانوا يترجمون شفهياً ولكن نادراً جداً كان عملهم الرئيسى ينحصر فى الترجمة التحريرية لبعض مقالات صحيفة « أيجيبسيان جازيت » ذات الأهمية الإعلامية الخاصة .

كانت هذه المقالات تجمع وتستخدم فى عمل نشرات إخبارية توزع بين القيادات السوفيتية بمصر . وعلى أساس هذه المقالات كان المترجمون يعلمون نشرات إخبارية يقرأونها كل صباح أمام موظفى هيئة أركان كبير المستشارين السوفييت . وكنت كثيراً ما أشترك معهم فى هذا العمل .

كان يوجد هناك مترجمون آخرون فى هيئة أركان الحرب من بينهم : أوليج كولموجوروف الذى كان يترجم من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الروسية وبالعكس لنائب كبير المستشارين السوفييت جنرال شيشيموروف ، والمستعرب شامل هيسيرياشاف الذى كان مترجماً لنائب كبير المستشارين للشئون السياسية الجنرال شوكين ، والمستعرب يورى شيفتسوف الذى كان مترجماً لنائب كبير المستشارين للشئون العامة جنرال نيريتين ، والمستعرب نيوكلاى لوكاشونوك الذى كان مترجماً لرئيس هيئة أركان الحرب جنرال جارييف .

كان حجم العمل لهؤلاء المترجمين لدى رؤسائهم الجنرالات كبيراً ، وكان يمتد ليشمل من يحل عليهم من زوار سوفييت من أصحاب الرتب العليا الرفيعة ، لهذا السبب فكثيراً ما كان كفاسيوك يرسل لمركز الإشارة فى طلبى إذا ما كانت هناك حاجة ملحة للترجمة باللغة العربية .

وهنا تحضرنى حادثتان مرتبطتان بوصول الرئيس المصرى أنور السادات للحكم .

فى اليوم الأول أو ربما الثانى من شهر مايو عام 1971 قام أنور السادات قبل انتخابه رئيساً للجمهورية بصفة رسمية بإلقاء خطاب عيد العمال بمجمع الحديد والصلب بحلوان ، كان ذلك معتاداً من جانب الرئيس جمال عبد الناصر . لاحظ المراقبون تغيب السيد/ على صبرى من بين كبار رجال الدولة الحاضرين فى الاحتفال . وكما هو معروف كان على صبرى يحتل مكانة هامة بين الناصريين اليساريين وكان حلقة الوصل بين موسكو والقاهرة .

عرفت بعد ذلك أن السفير السوفيتى فى القاهرة فلاديمير فينوجرادوف قد أرسل مترجمه الخاص إلى منزل على صبرى، حيث اكتشف المترجم أن على صبرى كان موضوعاً تحت الحراسة فى منزله .

فى الثالث عشر من شهر مايو عام 1971 بدأ أنور السادات ما سمى بـ « حركة التصحيح » ، حيث أزاح بمهارة تامة من طريقه جميع كبار رجال الدولة والساسة البارزين المناوئين له . فى ذلك الوقت استدعانى محمود جارييف رئيس أركان حرب كبير المستشارين السوفييت الذى كان معروفاً بنشاطه وحماسه ومبادرته ، وكلفنى بمهمة ألا وهى : تغيير ملابسى العسكرية وارتداء ملابس مدنية بدلاً منها ، ثم التوجه بعد ذلك إلى الأحياء الشعبية بالقاهرة لمراقبة وتتبع – على حد قوله – مظاهرات الاحتجاج الشعبية ضد أنور السادات ، ومعرفة الشعارات التى يرفعها المتظاهرون ، والتنصت على ما يقوله أفراد الشعب المصرى.

توجهت من فورى إلى حى العتبة ، ذلك الحى الشعبى الذى كثيراً ما كنا ونحن طلبة نجوبه ونتمشى به ، أخذت أسير هناك وأراقب ما يحدث حولى وأنصت لما يقوله عامة الناس . كنت حائراً مشوش الفكر وقد احمر وجهى من شدة الخجل. كان يخيل إلى أن الجميع يعرفون طبيعة المهمة التى حضرت من أجلها .

كان الوضع مستتباً والأمور تجرى فى مجراها الطبيعى كالمعتاد ، وقد شهدت حركة البيع والشراء تجرى بصورة طبيعية .

رحت أنظر إلى أنواع البضائع والأقمشة المختلفة . لم تكن هناك أية مظاهرات إحتجاج ولا أية شعارات .

عندما عدت أدراجى إلى منشية البكرى أبلغت الجنرال جاريبف بأننى لم ألحظ أية أحداث غير عادية فى حياة الناس فى القاهرة . ابتسم الجنرال وأخلى سبيلى فذهبت إلى مركز الإشارة .

أما الحادثة الثانية فقد كانت مرتبطة أيضاً بالجنرال جاريبف والرئيس أنور السادات .

فبعد قيام الرئيس المصرى أنور السادات بعملية إقصاء وإزاحة كبار رجال الدولة والسياسيين المعارضين فيما عرف بعملية التخلص من مراكز القوى ، أخذ السادات فى تنظيم العديد من اللقاءات مع العمال والمثقفين وطلبة وأساتذة الجامعة ، وكذلك مع أفراد القوات المسلحة . كانت خطبه التى يلقيها

والتى تستمر من ساعتين إلى ثلاث ساعات تتسم بالهدوء فى بداياتها ، ثم سرعان ما يعلوها الانفعال والاحتدام .

انتشر فى مصر فى تلك الحقبة القبض على الناصريين اليساريين والزج بهم فى السجون والمعتقلات ، لذا فقد قرر الجنرال جاريف - كما يبدو - أنه لابد من ترجمة خطب أنور السادات .

وقد وقع اختياره لأداء هذه المهمة علىّ أنا شخصياً . من أجل ذلك كان يتم إحضار جهاز راديو إلى مكتب الترجمة ، وفى أثناء إذاعة خطاب أنور السادات كنت أقوم بالترجمة الفورية لكل كلمة يقولها . وكنت أبذل قصارى جهدى فى نقل خطبه باللغة الروسية .

كان زملائى المترجمون يقومون على الفور بتصحيح وتحرير ما كنت أقوم بترجمته . بعد ذلك يقوم جندى المراسلة بتوصيل الترجمة المصححة ورقة بعد أخرى إلى الطابق الثانى حيث يوجد قسم الكتابة على الآلة الكاتبة . كان كل ذلك يتم بسرعة رهيبة بحيث تكون الترجمة معدة وجاهزة تماماً باللغة الروسية بعد حوالى 30 دقيقة فقط من إذاعة الخطبة عن طريق الراديو . يتم بعد ذلك نقل الترجمة بواسطة سيارة كانت تقف دائماً على أهبة الاستعداد فى فناء الإدارة . كانت السيارة تسير بسرعة البرق وتنهب الأرض نهباً عن طريق شارع صلاح سالم حيث كان هذا الشارع يخلو دائماً من المارة ، متوجهة إلى السفارة السوفيتية بالجيزة .

أعتقد أنه على الرغم من أن السفارة السوفيتية ، كان لديها عدداً كافياً من المترجمين والاستعداد التام للترجمة فى أية لحظة ، إلا أنها لا يمكن أن تكون منافساً مساوياً للجنرال جارييف بما يتمتع به من نشاط وحماس وإصرار زائدين عن الحد.

كان نتيجة لكل ذلك أن نجح الجنرال محمود أحمدوفيتش جارييف فى أن يصل إلى أعلى وأرقى المناصب ، إذ تولى مناصب قيادية متقدمة فى هيئة أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية، كما أصبح كبيراً للمستشارين العسكريين السوفييت أثناء الحرب فى أفغانستان ، ويشغل فى الوقت الحالى عدداً من الوظائف العسكرية العليا فى روسيا الاتحادية بما فى ذلك منصب رئيس الأكاديمية العسكرية الروسية .

استمرت عملية الترجمة الفورية التحريرية لخطب الرئيس أنور السادات مدة طويلة جداً حتى أخذ منى الضيق كل مأخذ. فقد كانوا يستدعوننى فى أى وقت وأى يوم . حتى أنهم قد استدعونى ذات مرة فى يوم جمعة ، يوم أجازتى الرسمية .

فى ذلك اليوم كنت فى زيارة المستشار فيكتور ستوبين . كانت زوجته نيللاسيرجييفنا قد أعدت لى غدائاً فخماً بالنسبة لإنسان عازب مثلى مكوناً من لحمة روستو فى الفرن . أخبرنى جندى المراسلة بأننى يجب أن أذهب على وجه السرعة إلى منشية البكرى للترجمة ، حيث أنه كان من المتوقع أن يقوم أنور السادات بإلقاء إحدى خطبه . رفضت بشدة الذهاب مع الجندى. عندما سمع ستوبين هذا الحديث بينى وبين الجندى هز رأسه

قائلاً لى : « كان من الواجب عليك أن تتصرف بطريقة أخرى كأن تقول للجندى أن يبلغ الإدارة بأنه لم يتم العثور عليك بما أن اليوم كان يوم أجازتك » .

تأكدت تماماً فى اليوم التالى من صحة كلام ستوبين ... هذا الرجل الحكيم - فما كدت أصل إلى مركز الإشارة حتى أخبرونى بتوقيع العقاب على بالسجن لمدة 15 يوماً . تم نزع الحزام الذى كنت أرتديه - كما تقضى بذلك اللوائح - تحسباً بأى عمل متهور قد يودى بحياتى . لكنهم لم يقوموا بوضعى فى السجن مباشرة ، فقد كان من الواضح أنهم ينتظرون شيئاً ما . علمت فيما بعد أن السبب فى تباطئهم فى وضعى بالسجن كان تلك المحاولات المستميتة التى كان يبذلها نائب رئيس مركز الإشارة للشئون المعنوية أوليج شوجل لرفع عقوبة السجن عنى .

كان دفاع أوليج شوجل عنى مبنياً على الآتى : أن الملازم أول جينادى جارياتشكين يقوم بعمله على الوجه الأكمل، ولا توجد ضده أية ملاحظات على أدائه لمهام عمله الأساسية فى مركز الإشارة ، حيث يتمتع بحب واحترام وتقدير جميع زملائه معه بالمركز . وقد أرهقه كبير المترجمين كفاسيوك باستدعاءاته المتكررة اللانهائية إلى مكتب الترجمة كى يقوم بأعمال ترجمة لا تدخل فى نطاق عمله المنوط به . لقد حان الوقت للدفاع عنه وليس لإنزال العقاب به .

كان لهذا الإصرار من جانب أوليج شوجل على رفع عقوبة السجن عنى أثر كبير على المقدم/ راسكازوف - الرئيس

الجديد لمركز الإشارة –الذى كان من أبرز صفاته ضعف الشخصية والتردد.

بالنسبة للمترجم الأجنبى - أو لأى زائر أجنبى فى أى بلد - فأهم مشكلة تواجهه هى لا شك مشكلة ملء وقضاء وقت الفراغ. هذه المشكلة تكون أكثر حدة بالنسبة للأجانب الذين لا يعرفون لغة البلد الذى يقيمون فيه والكسالى منهم وكذلك غير القادرين على قضاء أوقات فراغهم بالصور المثلى. لكن هذه المشكلة لم تواجهنى قط على وجه الإطلاق ، نظراً لأننى كنت قبل مغادرتى من الاتحاد السوفيتى فى طريقى إلى مصر قد اتفقت مع قسم تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط، ومع مشرفة بحث التخرج العلمى بجامعة موسكو الأستاذة الدكتورة فريدة أتسمبا أننى بعد انتهاء خدمتى بالجيش السوفيتى بمصر سألتحق بالدراسات العليا بالقسم ، وبأننى سأقوم – بقدر الإمكان – بأداء امتحانات الدرسات العليا خلال فترة أجازتى السنوية .

كان من الضرورى أن أقوم بجمع المواد العلمية اللازمة لكتابة رسالتى العلمية أثناء تواجدى بمصر . كان لى ارتباطات وعلاقات شخصية كثيرة منذ فترة دراستى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكنت أعرف مصادر الحصول على المراجع والمصادر العلمية اللازمة لذلك .

كان من الطبيعى خطورة استئناف هذه العلاقات الشخصية مرة أخرى فى ظروف عملى كمترجم عسكرى . إذ من الممكن

أن تفهم هذه العلاقات الشخصية على أنها خرق للقوانين العسكرية وكمحاولة لتسريب الأسرار العسكرية . وقد كانوا فى موسكو يحذروننا من مثل هذه العلاقات الشخصية مراراً . لذلك كنت أتصرف طبقاً للموقف .

كنت أحتفظ فى مكتبى فى مركز الإشارة بملابس مدنية أرتديها عندما أريد الذهاب إلى مكان ما . كنت أستأجر التاكسي وأتوجه به إلى وسط القاهرة ، وهناك أستأجر تاكسياً آخر أعود به مرة أخرى إلى مصر الجديدة ماراً بإدارة كبير المستشارين العسكريين السوفييت ، وأطلب من سائق التاكسى أن يتوقف عند سينما روكسى أو عند ثالث مبنى خلف السينما ، وهو مبنى معهد الدراسات الاشتراكية التابع للاتحاد الاشتراكى العربى . كان بهذا المعهد مكتبة كبيرة نسبياً، وهناك فى قاعة المطالعة المكيفة كنت أجلس للقراءة لبعض الوقت ، كنت أعيد الكتب التى أكون قد استعرتها من قبل كى أستعير دفعة جديدة أخرى لمدة أسبوع أو أسبوعين .

ثم بعد ذلك أعود إلى مكان عملى سيراً على الأقدام نظراً لقرب المسافة بين مقر عملى ومعهد الدراسات الاشتراكية ماراً بمنزل الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان يوجد عند مدخله مدافع صغيرة من العصر العثمانى ، بينما يقف عند المدخل الحرس الجمهورى الذى يتكون من جنود يتم اختيارهم بعناية ، فارعى الطول من ذوى الطلعة الحسنة والبشرة السمراء والأسنان البيضاء .

كان أكثر ما يهمنى هو جمع البيانات الإحصائية وإحصاءات معهد التخطيط القومى التى وجهنى للحصول عليها أساتذة جامعة موسكو . كانت تقارير معهد التخطيط القومى تحوى بحوثاً ودراسات علمية ذات قيمة كبيرة عن التركيبة الديموجرافية والاجتماعية لسكان مصر وعن أحوالهم الإقتصادية ، كما كانت تشتمل أيضاً على دراسات ميدانية . هذه المواد العلمية القيمة كنت أجمعها أيضاً أثناء فترة تدريبى عندما كنت طالباً بجامعة القاهرة . وحينما كانوا يسألوننى عن مكان عملى كنت أجيب عادة أننى موظف بالسفارة السوفيتية بالقاهرة .

كنت أتردد أيضاً إلى السفارة السوفيتية . هناك كنت لا أخفى حقيقة عملى كمترجم عسكرى . كان يعمل هناك أحد الخريجين من معهد اللغات الشرقية الذى كنت أدرس به فى موسكو . كنت كثيراً ما أتقابل معه هو وزوجته فى الفيلا المخصصة لاستراحة المدنيين السوفييت التى كانت تقع فى شارع ويل كوكس بالزمالك .

كنت أذهب إلى هناك مرات كثيرة لأحتسى البيرة ستلا وآكل الكباب ، وألتقى مع الموطنين السوفييت كى نتجاذب أطراف الحديث فى جو من الود والسلام .

بدا لى هذا الوضع غريباً بعض الشئ . فبينما كان من الممكن التمتع بالحياة وممارسة الرياضة مثل لعب كرة الطائرة ، والعيش فى سلام وهدوء فى حى الزمالك ، ومعرفة ما يجرى من

أحداث فقط عن طريق الجرائد والمجلات ومن أحاديث الآخرين، كان هناك من يتعرض لخطر الحرب والاستشهاد أثناء شن غارات العمق . لقد كنت أدرس أنا وصديقى هذا فى معهد واحد وسنة دراسية واحدة وفى مجموعة واحدة ، وبالرغم من ذلك فإن مصير كل منا اختلف كثيراً عن الآخر .

كما ذكرت آنفاً فقد أدى قيامى بجمع المواد العلمية اللازمة لكتابة رسالة الدكتوراه الخاصة بى إلى تنويع نمط حياتى فى مصر . ولا أنكر هنا أن المصريين كان لديهم الفضل الأكبر فى جمع هذه المواد العلمية ، فعلاقتهم بالمستعربين كانت تتسم بالحب والدفء ، لاسيما أفراد الحراسة .

لا زلت أذكر ذلك العريف المصرى ذا الشعر الأحمر الذى كان يعيش فى حى الروضة . كان شخصاً مرحاً يجيد فن إلقاء النكت والفكاهات . فعند وفاة الرئيس جمال عبد الناصر حضر إلى مصر رئيس الوزراء السوفيتى أليكسى كوسيجين للاشتراك فى مراسم تشييع جنازته .

وما كاد كوسيجين يترك القاهرة عائداً إلى موسكو بعد انتهاء مراسم تشييع الجنازة حتى قص على ذلك العريف النكتة اللاذعة التالية : يحضر أليكسى كوسيجين إلى مصر للاشتراك فى جنازة الرئيس جمال عبد الناصر ، ويسأل كوسيجين أنور السادات نائب الرئيس المرحوم : « هل قال لك جمال عبد الناصر شيئاً ما قبل رحيله ؟ » فأجابه أنور السادات بالنفى . يتوجه كوسيجين بنفس السؤال إلى أحد كبار رجال

الدولة الآخرين ، ثم إلى الثالث فيتلقى نفس الإجابة بالنفى ، عندئذ صاح كوسيجين قائلاً : « إذن من سيعيد إلى نقودى ؟ ... »

كان العريف رجب يسجل لى أول كل شهر أسعار السلع الاستهلاكية الضرورية بما فى ذلك أسعار المواد الغذائية . استمر ذلك على مدى عام 1970 بأكمله .

كان يقوم بنفس هذا العمل مصريان آخران ، هما صاحب أقرب محل بقالة وعامل النظافة فى الفندق الذى كنا نقيم فيه، اللذان كانا يسكنان فى أحياء أخرى فى القاهرة .

سجلت أنا بنفسى هذه الأسعار بمدينة نصر . كان الكشف الذى كنت أسجله يضم ما يقرب من خمسين نوعاً من البضائع . كانت هذه البيانات ضرورية ولازمة بالنسبة لى حتى يمكننى عمل مقارنة بين الأسعار الرسمية التى كان يصدر بها بيان من إدارة خاصة بالاتحاد الاشتراكى العربى ، والتى كانت تطبق فى القطاع العام الحكومى وبين الأسعار الأخرى التى كانت تباع بها نفس هذه البضائع فى محلات القطاع الخاص .

كانت الحكومة المصرية ترسل سنوياً بياناً بهذه الأسعار إلى منظمة العمل الدولية فى جنيف ، التى كانت تقوم بدورها بإصدار كتاب سنوى يضم بين بياناته المختلفة الأسعار المشار إليها آنفاً .

بمقارنة الأسعار المدونة بكتاب المنظمة الدولية وأسعار نفس

هذه البضائع فى أسواق القاهرة لاحظت وجود فروق كبيرة فى الأسعار تصل إلى ما بين 15 إلى 20% ، لذلك توصلت إلى النتيجة التالية : وهى أن أهالى القاهرة يدفعون فى شراء البضائع الاستهلاكية أسعاراً أقل بـ 1/5 من تكلفتها .

فيما بعد استخدمت نتائج هذا البحث الميدانى الذى قمت به فى كتابة رسالة الدكتوراه بهدف حساب الأجور الفعلية والحد الأدنى للمعيشة للعمال المصريين .

فى أوقات فراغى كنت أستعد لأداء الامتحانات الخاصة بالالتحاق بالدراسات العليا بجامعة موسكو فى التاريخ والفلسفة واللغة العربية الفصحى ، ولكى لا أنسى قواعد اللغة العربية الفصحى كنت أداوم على قراءة مختلف المقالات بالصحف والمجالات المصرية مع قيامى بتشكيل نهاية الكلمات حسب موقعها من الإعراب .

أديت امتحانات الالتحاق بالدراسات العليا بنجاح فى صيف عام 1970. وهكذا مر عامان .

# خاتمة

طويت صفحة أخرى من صفحات حياتى قضيتها فى العمل كمترجم عسكرى سوفيتى فى الجيش المصرى . لقد مر على ذلك ما يزيد على الثلاثين عاماً .

أعتبر هذه الفترة من حياتى التى سردت أحداثها مرحلة طبيعية من مراحل حياتى كمواطن سوفيتى يخضع لقوانين بلده ، أدى الخدمة العسكرية التى كلف بها ، وكمستعرب درست بالجامعة دورة فى مجال الترجمة العسكرية استخدمتها خلال عملى فى فترة زمنية تعد أكبر محنة وأصعب اختبار يمر به إنسان - ألا وهى فترة الحرب .

وكغيرى من زملائى ورفاقى الذين يزيد عددهم على الألف فرد هم فى الوقت الحالى أعضاء جمعية المحاربين القدماء الذين حاربوا فى مصر ، والتى يقع مقرها بموسكو ويرأسها بطل الاتحاد السوفيتى العقيد كونستنتين بوبوف ( وهو أول من قام بإسقاط طائرة فانتوم عسكرية إسرائيلية ) ، أعترف بأنى غير آسف على تلك المرحلة من حياتى ، لأنى قد نفذت الأوامر الصادرة إلىّ من القيادة العسكرية السوفيتية العليا .

وقد نلتُ « نوط الواجب العسكرى من الدرجة الأولى » مما أفتخر به . كما أننى فخور جداً لأننى ساعدت الشعب المصرى فى أحلك وأصعب أوقاته ... ساعدت ذلك البلد الذى كرست حياتى وجهدى كمستعرب من أجل دراسته .

أ.د. جينادى جورياتشكين
الساحل الشمالى صيف 2003

# السيرة الذاتية

ولدت بمنطقة سيبيريا الشرقية بالاتحاد السوفيتى فى عام 1945 .

التحقت فى عام 1963 بمعهد اللغات الشرقية ( حالياً يعرف باسم معهد بلدان آسيا وإفريقيا ) التابع لجامعة موسكو المسماة باسم العالم الروسى لومونوسوف ، تخصص « اللغة العربية وتاريخ البلدان العربية » .

خلال العام الدراسى 1967 - 1968 قضيت فترة تدريبية بقسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

فى عام 1969 - أنهيت دراستى بجامعة موسكو .

فى نفس هذا العام استدعيت لأداء الخدمة العسكرية فى الجيش السوفيتى ، حيث تم إيفادى إلى مصر للعمل كمترجم عسكرى .

بعد انتهاء خدمتى العسكرية - لمدة سنتين - عدت إلى جامعة موسكو حيث أنهيت دراستى العليا وحصلت على درجة الدكتوراه عن موضوع : « تكون طبقة البلوريتاريا بالمعامل والمصانع بجمهورية مصر العربية والوضع المادى لها ( فى السنوات من عام 1952 وحتى عام 1970 ) » .

تم تعيينى أستاذاً لتاريخ البلدان العربية الحديث والمعاصر بقسم تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط بمعهد بلدان آسيا وإفريقيا التابع لجامعة موسكو .

فى عام 1996 دافعت عن أطروحتى للحصول على دكتوراه الدولة ( بروفسيور ) بنفس القسم .

فى عام 1998 تم انتخابى نائباً لرئيس جمعية أصدقاء مصر فى روسيا ، التى سميت فى السابق « جمعية الصداقة السوفيتية - المصرية » .

حضرت إلى مصر مرات عديدة : رافقت طلاب جامعة موسكو الوافدين إلى مصر للتدريب اللغوى بكلية الآداب جامعة القاهرة.

اشتركت فى العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية والسياسية والاجتماعية ، آخرها المؤتمر الدولى الأول للعلاقات الثقافية المصرية الروسية بدار الكتب المصرية سبتمبر 2013 ، والذى نظمته دار نشر أنباء روسيا .

مؤلف حوالى عشرة كتب كرست معظمها التاريخ وثقافة مصر.

تمت ترجمة مؤلفاتى الأخيرة إلى اللغة العربية : « الأقليات الأجنبية فى مصر» ، « روسيا ومصر فى ضوء الأرشيفات الروسية» « بحثاً عن الذهب ».

فى الوقت الحالى يتم إعداد بعض مؤلفاتى باللغة العربية .

سبق أن عملت فى الفترة من يوليو 2000 حتى 2004 مديراً للمركز الروسى للعلوم والثقافة ونائباً لقنصل روسيا الاتحادية بالإسكندرية .

## المؤلفات :

1. نشأة الطبقة العاملة المصرية فى الظروف الاستعمارية فى مصر فى فترة ما بين 1841 إلى 1914 – معهد الإعلام البحثى للعلوم الاجتماعية – موسكو – 1992 باللغة الروسية .
2. مصر فى عيون الروس من أواسط القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين ( السياسة – الاقتصاد – الثقافة ) – معهد الإعلام البحثى للعلوم الاجتماعية – موسكو ، 1992 باللغة الروسية .
3. دور الأقليات الأجنبية فى تكوين مصر الاجتماعية الحديثة ، دار الثقافة الجديدة – القاهرة 1996 .
4. رحلة البروفيسور نيكولاى بوجويافلينسكى إلى الخليج العربى فى 1902 – مطبعة جامعة موسكو ، موسكو ، 199 باللغة الروسية .
5. إطلالة على تاريخ الخليج العربى والجزيرة العربية من خلال الوثائق الروسية – الجزء الأول – البحرين 1999 .
6. المهاجرون الروس فى مصر وتونس ( 1920 – 1939 ) مطبعة

جامعة موسكو، موسكو – 2000 – باللغة الروسية.

7. روسيا ومصر فى ضوء الأرشيفات الروسية – أواسط القرن 19 – بداية القرن الـ 20 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 2002.

8. بحثاً عن الذهب من تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا ومصر فى أواسط القرن التاسع عشر – منشأة المعارف – الإسكندرية 2003.

9. صفحات من الحوار الثقافى الروسى المصرى :
الجزء الأول : منشأة المعارف – الإسكندرية – 2003.
الجزء الثانى : منشأة المعارف – الإسكندرية – 2004.

10. روسيا ومصر ـ صداقة ممتدة :+
الطبعة الأولى : منشأة المعارف – الإسكندرية – 2003.
الطبعة الثانية : منشأة المعارف – الإسكندرية – 2004.

11. بورسعيد – مهد الحركة العمالية المصرية – منشأة المعارف – الإسكندرية – 2003.

12. العدوان الثلاثى على مصر فى ذكريات المعاصرين وشهود الأعيان السوفييت – موسكو – مطبعة معهد الاستشراق – 2007–باللغة الروسية.

13. ذكريات مترجم سوفيتى على الجبهة المصرية (ترجمة د. مديحة رضا) :

الطبعة الأولى : منشأة المعارف - الإسكندرية - 2008 .
الطبعة الثانية : دار نشر « أنباء روسيا » بالتعاون مع الجمعية المصرية الروسية للثقافة والعلوم -2014 .

14. روسيا الإسكندرية ـ مصير الهجرة لمصر (باللغة الروسية) :
الطبعة الأولى : موسكو- 2010 .
الطبعة الثانية : موسكو- 2012 .

15. مصر فى الأرشيفات الروسية ( ترجمة د. إيمان يحيى ) إصدار المركز القومى للترجمة - جمهورية مصر العربية - 2013 .

16. تحت الطبع : رحلة نيكولاى بوجويافلينسكى إلى الخليج العربى فى 1902 - دار عبد العزيز للنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية .

17. تحت الطبع : العدوان الثلاثى على مصر فى ذكريات المعاصرين وشهود العيان السوفيت - القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة .

# فهرست الصور

6. حفلة العشاء مع ضباط كتيبة الإشارة السوفيتية فى مطعم كازينو ( ميريلاند ) بمصر الجديدة ، سنة 1970 .

7. الوالدة .

8. الوالد ، المشارك فى الحرب الوطنية العظمى .

9. بين أساتذة قسم تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط بجامعة موسكو ، مايو 1987 .

10. مأدبة الغداء على النيل ، من اليسار – الثانى مدير معهد آسيا وإفريقيا بجامعة موسكو البروفيسور ميخائيل ماير، الثالث أ. د. جينادى جارياتشكين ، الرابع الفريق أليكسى سميرنوف قائد الفرقة 18 السوفيتية للدفاع الجوى التى حاربت فى مصر إبان (حرب الاستنزاف ) ، رحلة أعضاء جمعية المحاربين القدامى فى مصر بدعوة من الدكتور/ إبراهيم كامل فى سنة 1996 .

11. المركز الروسى للعلوم والثقافة بالإسكندرية .

12. أ. د. جينادى جورياتشكين فى مكتبه بالمركز الثقافى الروسى بالإسكندرية ، من اليسار متولى محمد بحر، أقدم موظف فى المركز ( منذ 1971) ، من اليمين الصحفى السباعى من جريدة الأهالى ( حزب التجمع ) ، عام 2004 .

13. المركز الثقافى الروسى بالإسكندرية ، حفلة الاستقبال بمناسبة الذكرى الـ 60 من استئناف العلاقات

السياسية بين مصر والاتحاد السوفيتى والذكرى الـ 35 لإنشاء المركز الثقافى الروسى بالإسكندرية . من اليسار القنصل التركى العام ، القنصل الروسى العام نور محمد خولوف ، نائب القنصل ومدير المركز الثقافى الروسى أ. د. جينادى جارياتشكين ، رئيسة نادى السيدات الروسيات أولجا السيد ، والمسئولة عن نشاط المركز الثقافى إفجينيا كرامارينكو ، الإسكندرية 29 نوفمبر سنة 2003 .

14. فى المعرض الفنى للرسامة الروسية تاتيانا بوجاييفا من اليسار - الفنانة بوجاييفا ، مدير المركز الثقافى الروسى أ. د. جينادى جارياتشكين ، السيد محافظ الإسكندرية محمد عبد السلام محجوب ، السيد مدير مركز الإبداع يحيى عاشور ، الإسكندرية 5 أكتوبر عام 2003 .

15. ستوديو ( تشايكا ) المسرحى ، وهو فخر المركز الثقافى الروسى بالإسكندرية ، بعد مسرحية ( الدب ) لتشيخوف ، الثالث من اليسار رئيس ستوديو ( تشايكا ) الأستاذ حمدى سالم 25 - 2 - 2001 .

16. راقصات الباليه برئاسة المدربة لاريسا بينتشوكوفا ، الإسكندرية ، عام 2003 .

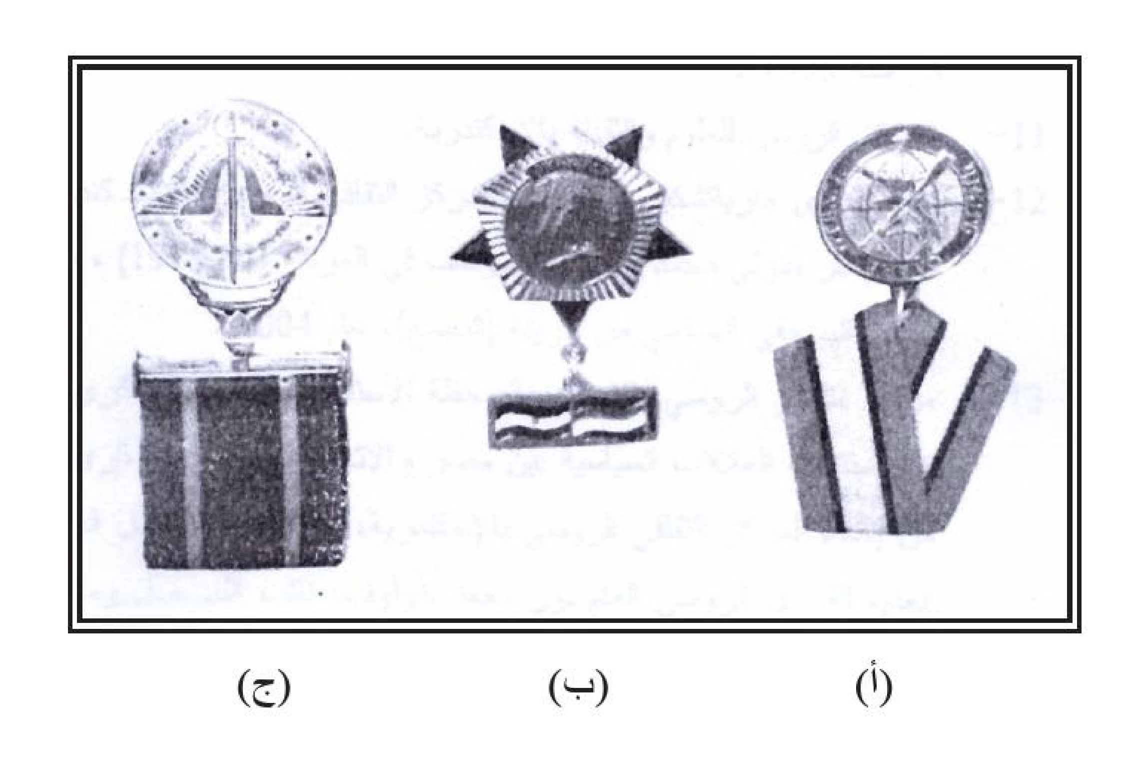
17. أ.د. جينادى جورياتشكين مع ابنته أولجا والزوجة جالينا.

18. بعد العودة إلى موسكو سنة 2006 .

19. أ. د. جينادى جورياتشكين يتسلم من د. عبد الواحد

النبوى رئيس دار الوثائق القومية ميدالية الشيخ محمد عياد الطنطاوى ـ أول مُعلم للعربية بالإمبراطورية الروسية ـ أثناء مشاركته فى أعمال المؤتمر الدولى الأول للعلاقات الثقافية المصرية الروسية الذى عقد بدار الكتب المصرية – سبتمبر 2013 ـ برعاية دار نشر " أنباء روسيا " .

# الصـور

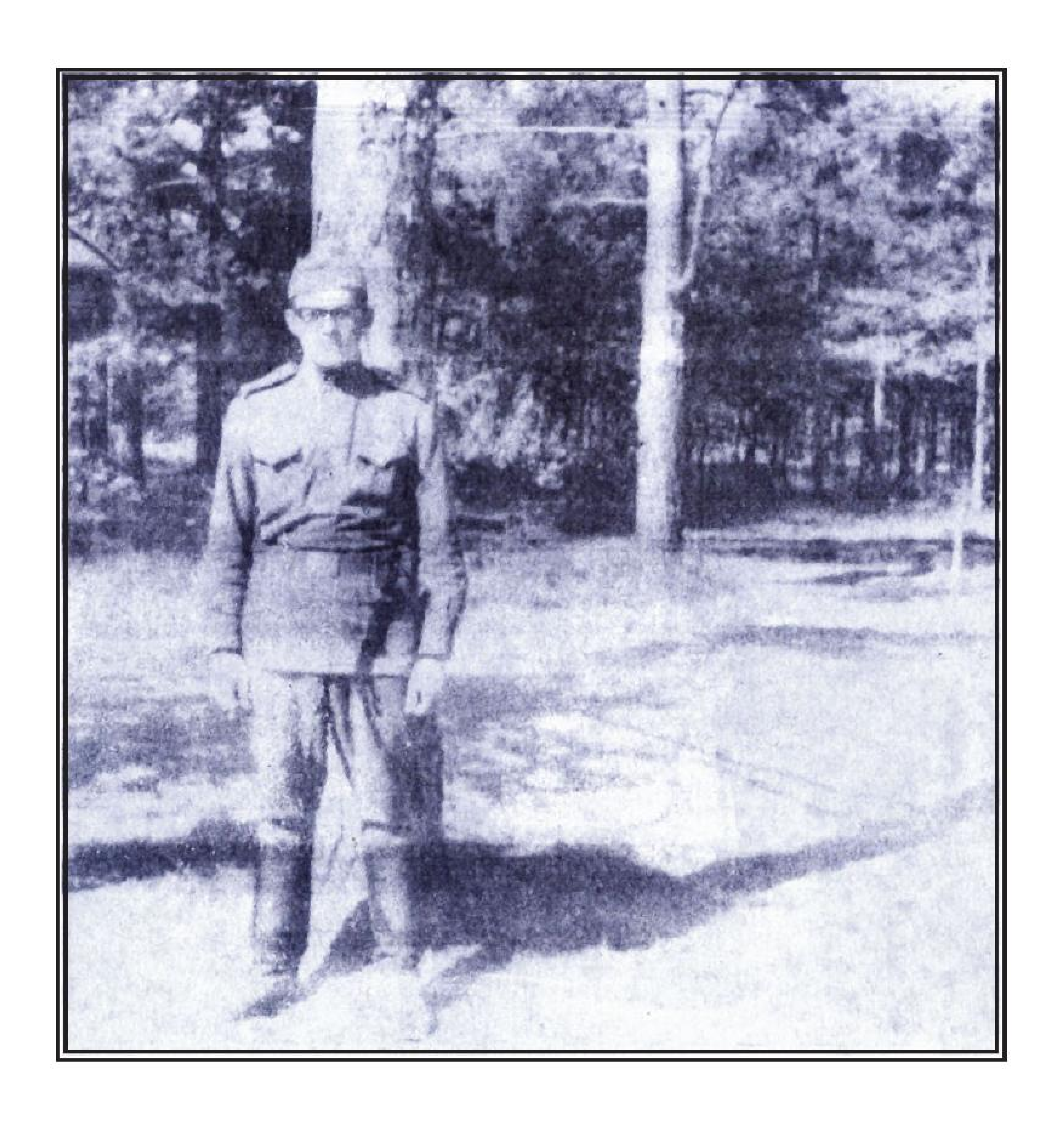


(ج) (ب) (أ)

(1) أ - نوط الواجب العسكرية من الدرجة الأولى .

ب- نيشان الأخوة القتالية ( موسكو - القاهرة ) .

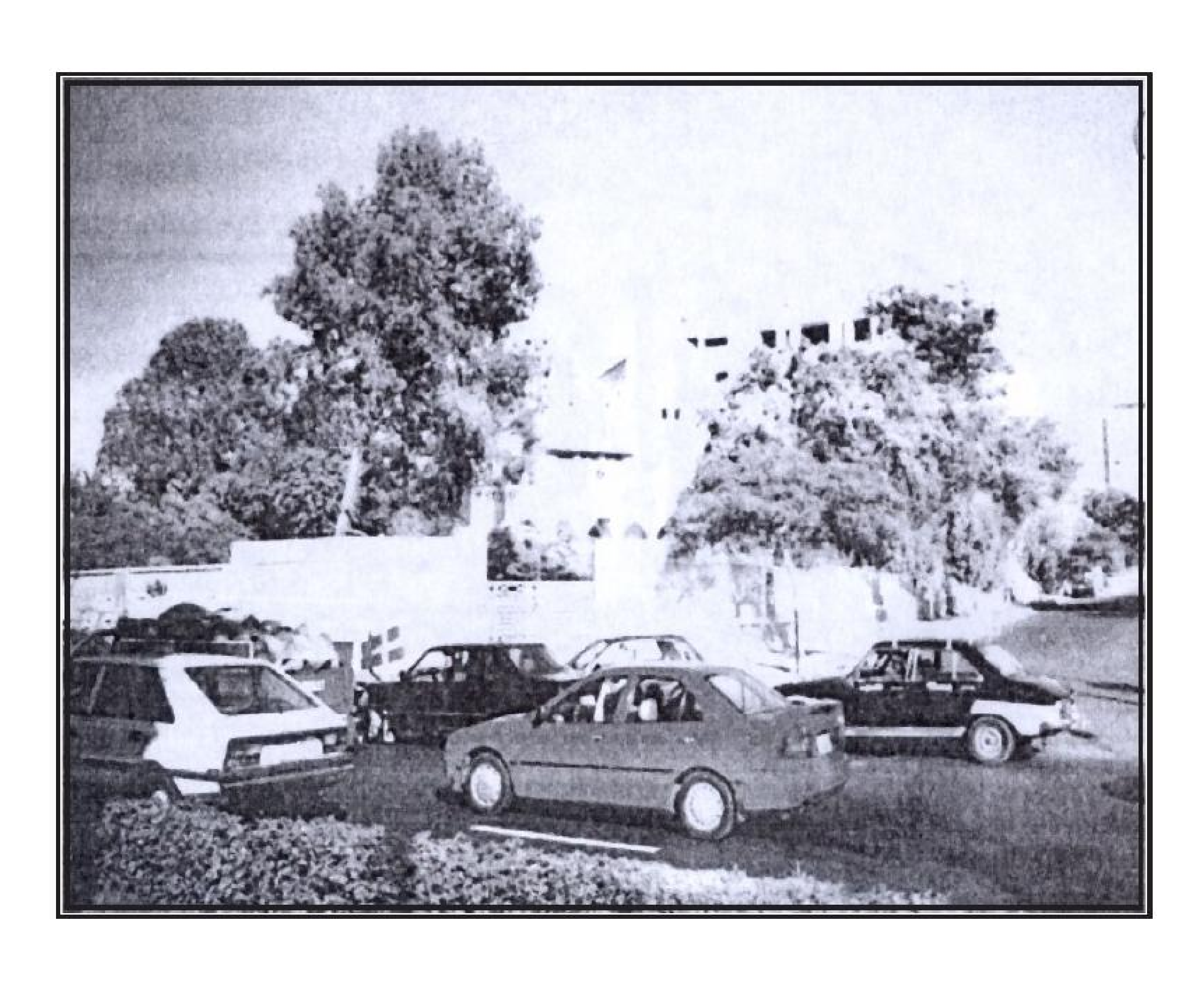
ج - ميدالية ( المحارب القديم فى العمليات الحربية لجنود وضباط دول الكومنولث السوفيتية السابقة ).



2 ـ الحارس النوبتجى فى معسكر التدريب العسكرى الجامعى



3ـ بين الفلاحين، رحلة مبعوثي جامعة القاهرة الأجانب إلى الفيوم



4 ـ الفيلا العسكرية السوفيتية فى شارع العروبة



5 ـ فندق ( ناصر ـ سيتى 4 ) فى مدينة نصر



6ـ حفلة العشاء مع ضباط كتيبة الإشارة السوفيتية



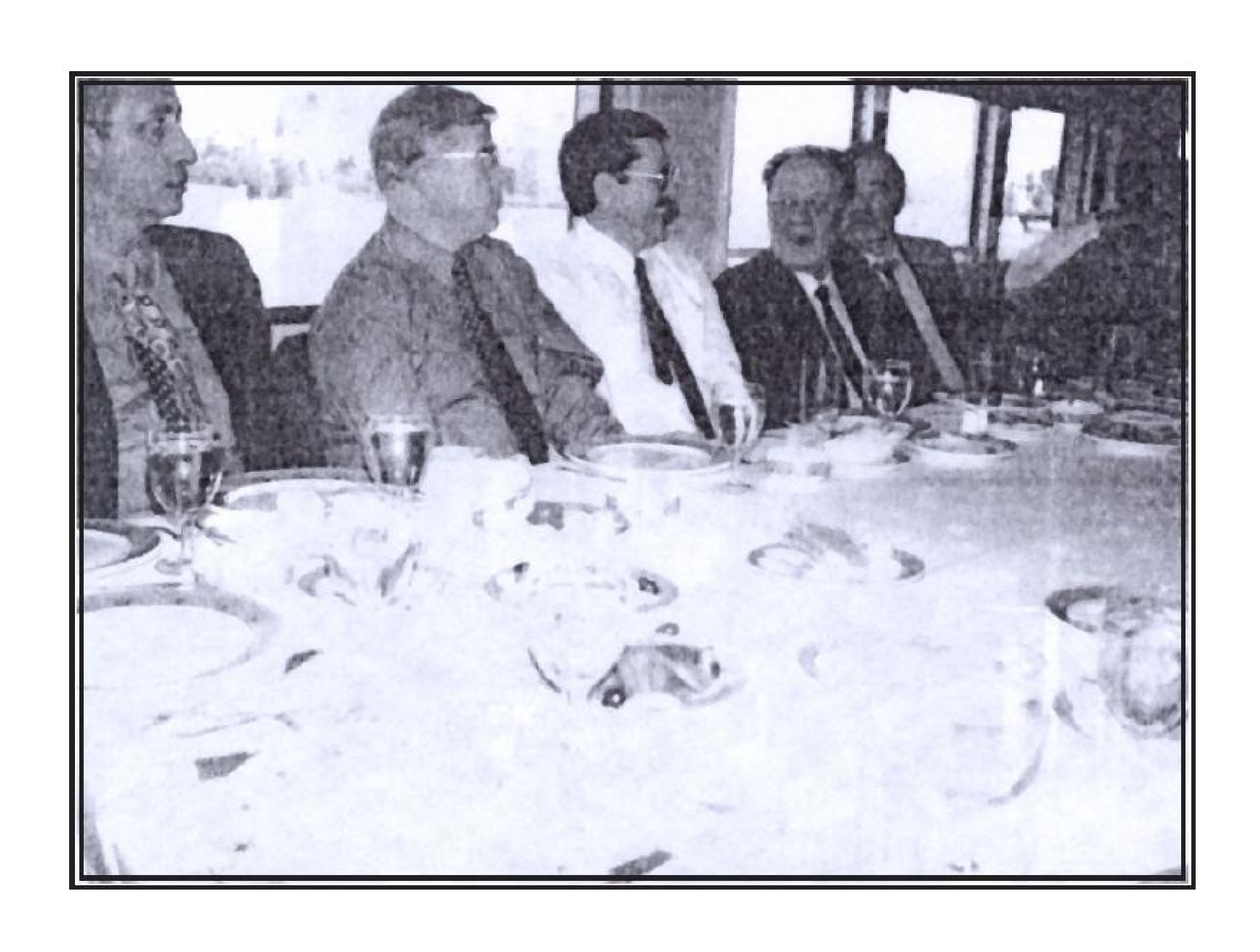
7 ـ الوالدة



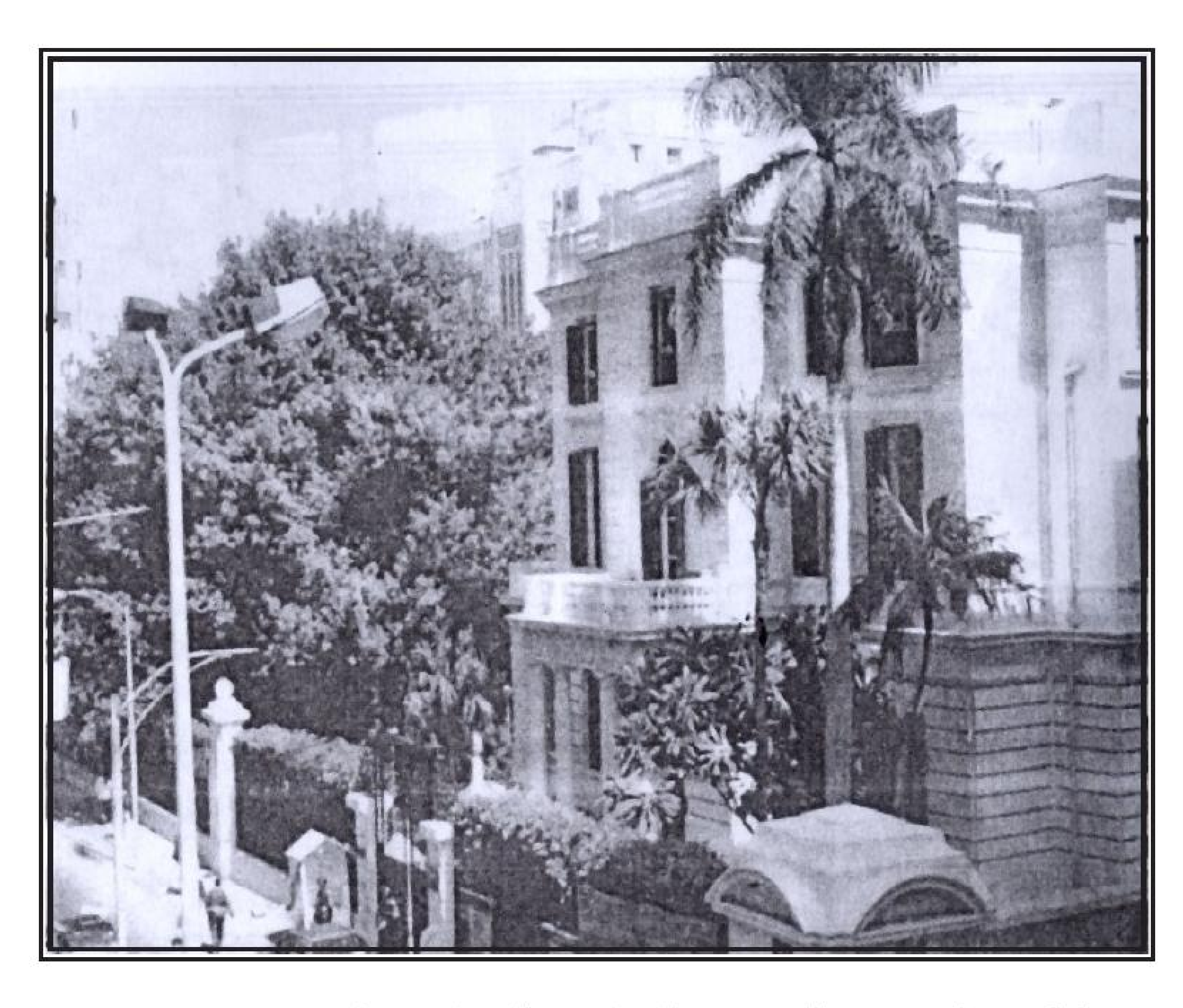
8 ـ والد د . جينادى جورياتشكين المشارك فى الحرب الوطنية العظمى



9ـ د . جينادى جورياتشكين بين أساتذة قسم تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط بجامعة موسكو ، مايو 1987



10 ـ مأدبة الغداء على النيل



11 ـ المركز الروسى للعلوم والثقافة بالإسكندرية .



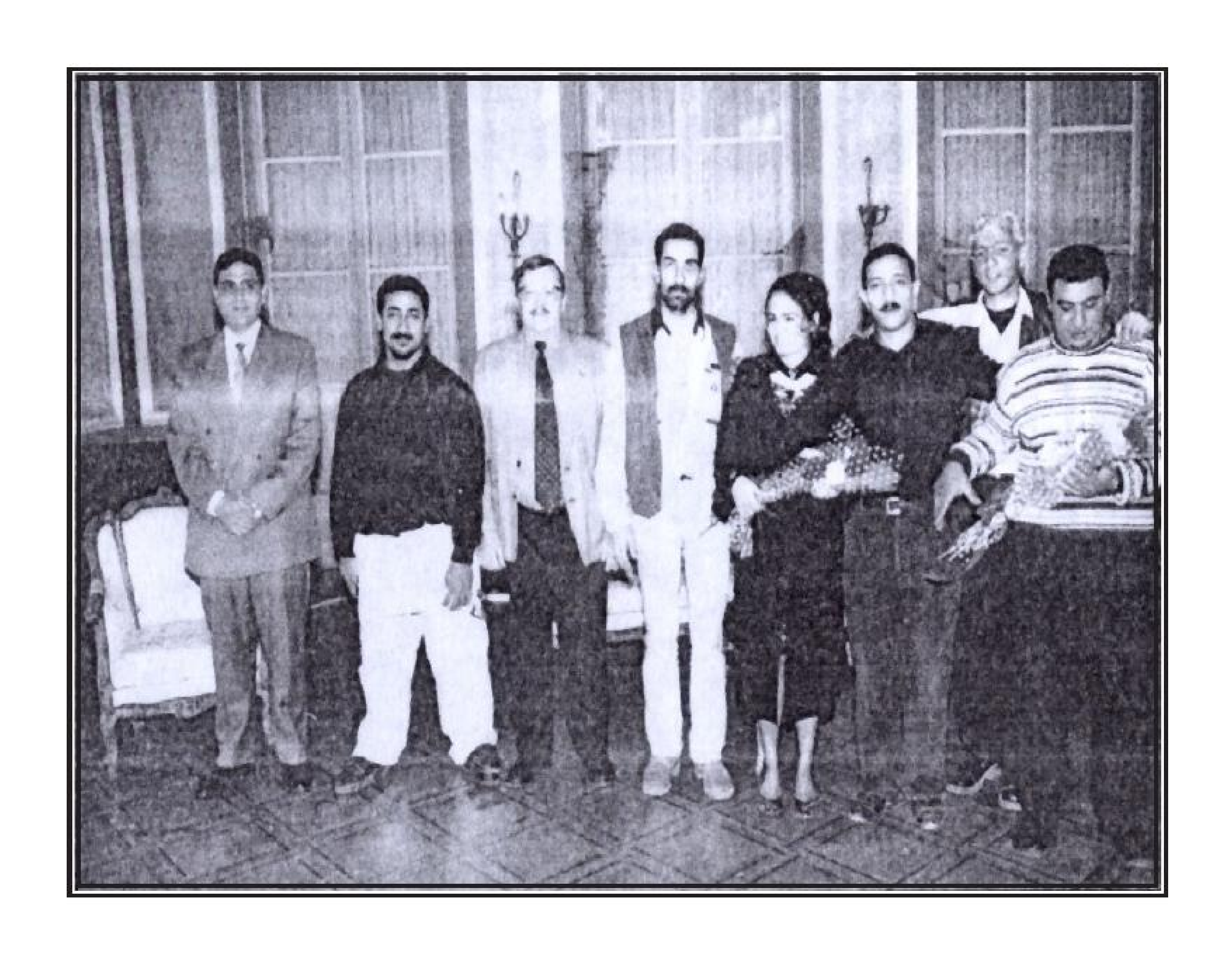
12 ـ أ. د. جينادى جارياتشكين فى مكتبه بالمركز الثقافى الروسى بالإسكندرية



13 ـ المركز الثقافى الروسى بالإسكندرية ، حفلة الاستقبال بمناسبة الذكرى الـ 60 من استئناف العلاقات السياسية بين مصر والاتحاد السوفيتى والذكرى الـ 35 لإنشاء المركز الثقافى الروسى بالإسكندرية



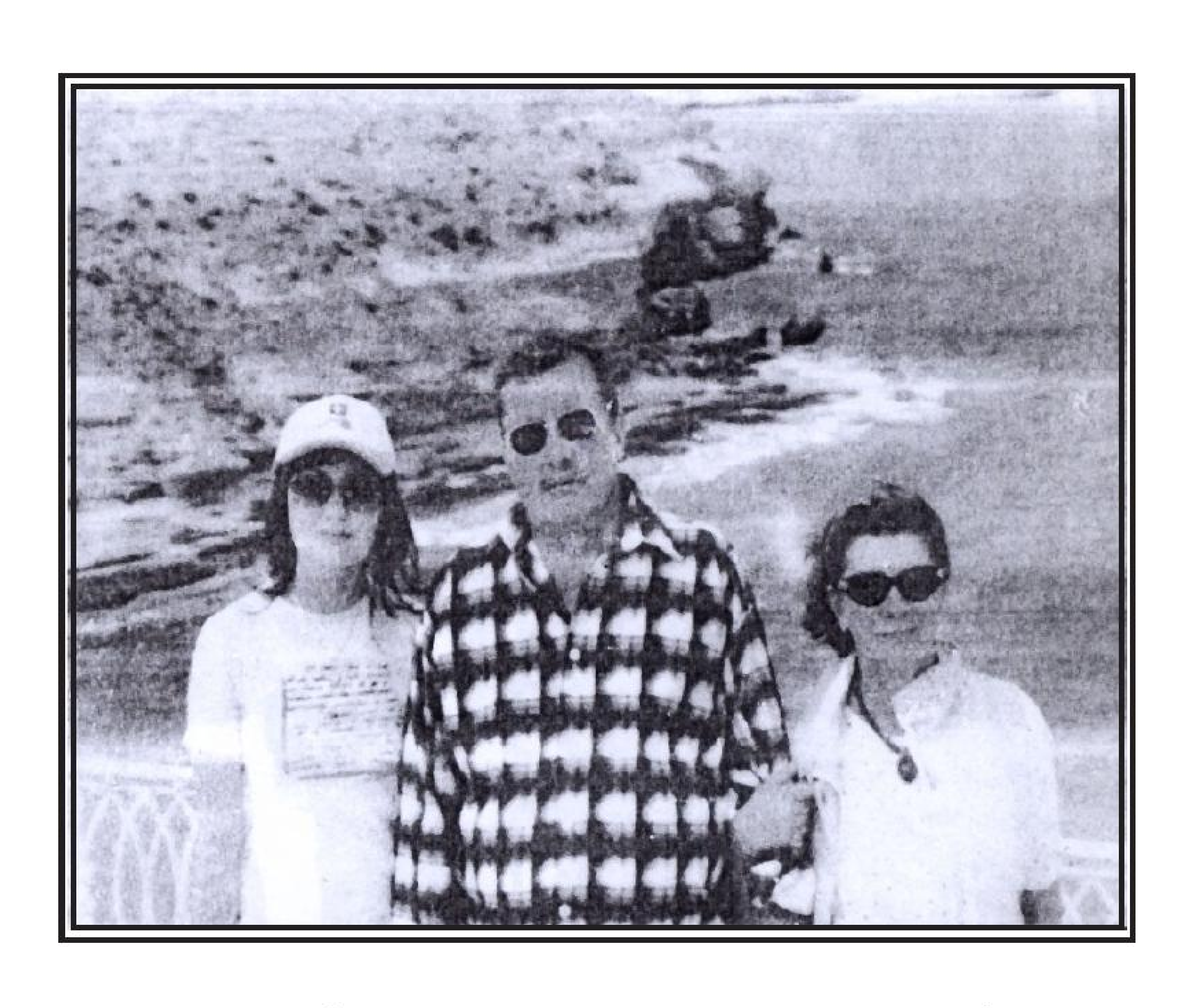
14 ـ  فى المعرض الفنى للرسامة الروسية تاتيانا بوجاييفا



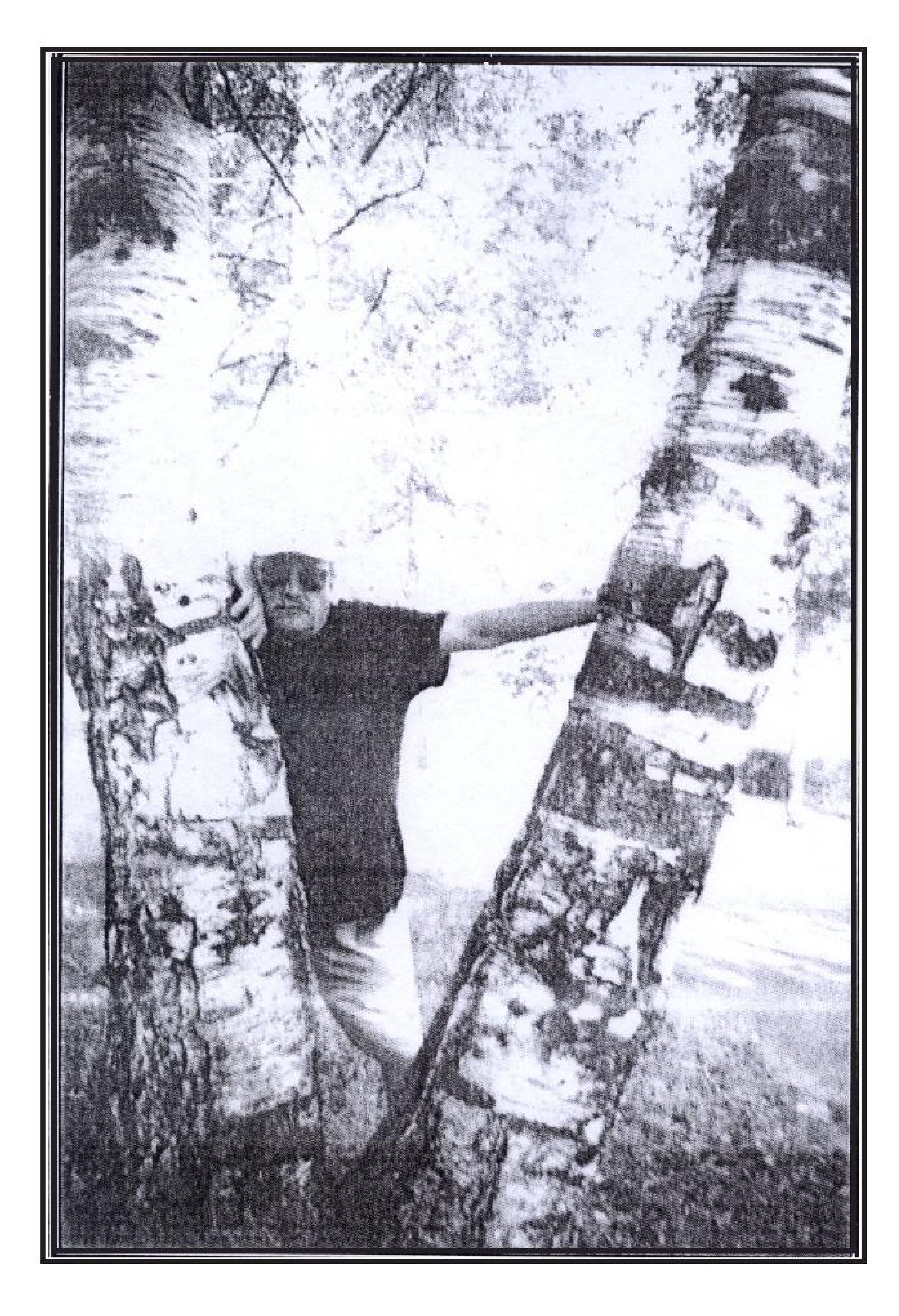
15 ـ ستوديو ( تشايكا ) المسرحى فى المركز الثقافى الروسى بالإسكندرية



16 ـ راقصات الباليه برئاسة المدربة لاريسا بينتشوكوفا



17 ـ أ. د. جينادى جورياتشكين مع ابنته أولجا والزوجة جالينا.



18 ـ بعد العودة إلى موسكو سنة 2006



19 ـ أ. د. جينادى جورياتشكين يتسلم ميدالية الشيخ محمد عياد الطنطاوى من د. عبد الواحد النبوى رئيس دار الوثائق القومية فى المؤتمر الدولى الأول للعلاقات الثقافية المصرية الروسية – سبتمبر 2013 ـ برعاية دار نشر " أنباء روسيا" .

# الفهرس